ليلة إنتظار الحياة

مشهور

اسم الكتاب: ليلة إنتظار الحياة

اسم الكاتب: مشهور

رقم الإيداع: 2344 / 1440

الترقيم الدولي: 978-603-02-8406-1

الطبعة الأولى: 2018

تدقيق لغوي: عمرو السواح

إخراج داخلي: هيام فهيم

صادر عن: مؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma_kotab_publishing

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

إهداء والسلام؛

على الضاحكين وفي قلوبهم بكاء سنين،

أولئك الذين قرروا العيش ولم تحالفهم الحياة بعد.

جلال الدين الرومي

تقديم

أشعر بخيبة شمعة ضحّت بنفسها لتضيء غرفة أعمى! يسكنني كمٌّ هائل من الكلام والانتظار وخيال مثقل بالنسيج لكن ومع هذا كله لم أتمكن من إشعال فتيل روايتي إلا بهذه المقولة التي تشبه اشتعالي! أشعر بأن الأغاني، والقصائد، والأقاويل وُجدت لحكمة عظيمة، وجدت لتمثل أصوات الساكنين على هامش هذه الأرض، أشعر بأن ثقتي بنفسي باتت تتضاعف وثقتي بصوتي أصبحت معدومة! أتأمل الأغاني والقصائد وأبدأ باستشعار أفضالها على المهمشين؛ فلولاها من كان سيضع الملح على جراحنا، من كان سيكون صوتنا المسموع! ما أبشع العيش على الهامش.. هي حياة جديرة بكل شيء حتى الموت يجدر بها، هي حياة صراع مع الشك سوف تشكك في أنفاسك ونبضات قلبك! سوف تشك أنك على قيد الحياة، هي حياة انتظار الحياة، لن تستطيع عيش لحظاتك فقط سوف تكون راكبًا في حافلة معطلة الدولايب! ولكنها مع ذلك تسير وبسرعة جنونية، لن تتكمن من القيام بأي فعل ارتجالي، سوف تتساءل دون جدوى، سوف تكون مضطراً لانتظار الهاوية!

في ليلة عيد فطر 2018 ولدت انتظاري من جديد.

كم هو مؤسف أن تحجز تذكرة للراحة على متن الوسادة ثم تبدأ باستشعار نسائم الراحة، لكن سرعان ما تهبط الوسادة هبوطا اضطراريا لأسباب مجهولة، أعلنت استسلامي وذهبت للمطبخ لتحضير الشاي بعدها صعدت للسطح هناك حيث الريحان الذي أعشقه والسماء الكبيرة التي تشعرني ببقايا العدل لضخامتها!

ولإدراكي استيعابها واحتضانها للجميع استلقيت على ظهري متأملا صنع البديع، كانت السماء صافية وشديدة الظلام وكانت أم كلثوم تقول: "أهل الحب صحيح مساكين"، لا أعلم لكني شعرت وقتها بأن السماء هي من كانت تغني هذا الكوبليه، بديع جدًّا هذا المقطع، قد خلق لي فرصة للنوم وكأنه انتشل مني همومي وأشجاني استيقظت ولا أعلم كم الساعة، ما أعلمه أنها لم تكن غفوة طويلة لكن أسكتني الصقيع! أخذت سيجارة وأنا أنفخ بها انتظاري، بدأ النور يتداخل مع الظلام ليشكلا لونا لا أعلم ما اسمه، لكني أتفاءل به وأعشقه وقتها قلت: ودعت القمر ما يقارب العشرين عامًا خذلني خِذلانًا لا يليق بانتظاري وتفاءلي، اللهم عجل لي في الصباح الذي أود القول فيه بصوت مرتفع: صباح الخير!

في بداية صباحي أحضرت ماء لسقاية الريحان وفنجان قهوة قد يعيد لي شعوري المسروق، شكلت رائحة القهوة تحالفًا مع الريحان وصوت فيروز ورحت متأملًا الطيور لوهلة، شعرت بأن هذه الحالة مكيدة أو نفخ لوقوعي، لا أعلم ما الحكمة أن تكون أسباب البقاء أصعب من أسباب الوداع، أسباب البقاء أن تعيش سنوات قدرها الله عليك سوف تفارق فيها أحبة وسيمرضون وستمرض وسوف تحلم وقد تدفع عمرك كله في سبيل حلم! من قرر البقاء قد يصل ومن لم يصل قد يوصل أبناءه في أسوأ الحالات، شرف المحاولة نجاح لكل قرار، كان هناك قلب يفيض جنونا بمواصلة القراءة!

من قرروا الغياب كانوا يودون قراءة الرواية كاملة، كانوا يتمنون أن ينقحوها لأبنائهم ويلخصون لهم أهم اقتباساتها، يا ألله أشعر بالفشل فلقد بدأت الرواية تخرج عن سياقها، كم هو صعب أن تروي حياتك على ورق لكني لا أعلم أين مكمن الصعوبة هل لاستهانتي بالقلم؟ تردد فظيع! هل أصحح شيئا؟ هل أبقى واقعيًا إن كان هنالك من يقرؤني؟ هل أنا كاتب؟ مشوش جدًا أقسم إن هذه الحروف تكتب ولا أعلم إن كان لها بقية.

بعد يومين من كتابتي لكلمة بقيت قررت أن أبقى وكما قال درويش نحن أحياء وباقون وللحلم بقية عند عودتي، كانت هنالك بوادر للسلم مع صفحاتي، هواجسي باتت تتضاءل، إن كنت كاتبًا أم لا وتساؤلاتي بدأت تتزايد هل سأنجح؟ التساؤلات ستجيب عنها الأيام، أما عن هواجسي فلا أرى فيها ما يعكرني ببساطة لأنه ليس أنا من يكتب الرواية، دون مبالغة أشعر وكأن الحبر تحول لإبرة تسحب من صدري فيضانه ومشاعره دون حتى إذن لكن استهانتي بنفسي لا تزال تحاول إزعاجي، كيف لعشرين رمضان أن تخلق مضغة رواية! يا ألله ما هذا التناقض أو لم أدع بأن الرواية هي من تكتبني! ألم أبالغ بقولي إن الحبر تحول لإبرة تسحب مني الفيضانات!

هل كان ينقض تائه مثلي يبحث عن بقايا ذاته تناقض! هل أستحق شرف المحاولة؟ هل سأنال ثقة من حولي؟ هل سيحترمني القارئ حال معرفته بأنه يقرأ لشخص أكبر شهاداته ثانوية عامة! هل سيحترم نضج عقلي الذي يسبق سنوات الضياع بمراحل كبيرة مشتت!

لكنه ليس ذنبي، ذنب المجتمعات والعقول التي تحكم على المرء ليس عن طريق عقله أو فضاء مخيلته بل عن طريق شهاداته وقبيلته وأولًا وآخرًا ماله!

ينتابني شعور بأن الروائيين خلقهم الله من حجر ليس فخرًا أو تعاليا فأنا لا أرى نفسي إلى الآن منهم! لكن كيف لبشر أن يسرد شتاته وضياعه باللغة العربية الفصحى! كيف له أن يكون كتابا مفتوحا! كيف له أن يثق بقلم حبر ورائحة ورق!

كيف له أن يسلم عنقه للورق في الوقت الذي يكون فيه معزولا عن أهله خجولا مع أصدقائه!

لا أخفيكم راحتي بعد الكتابة أشعر بأن عقلي بدأ يخس وزنه وتناهيد صدري باتت تعود لطبيعتها، أشعر بأن الحبر استوطن دمي ورائحة الورق أصبحت عطري! شعور جميل لن يفهمه سوى روائي بائس لم يجد من متنفس للبوح سوى بالكتابة! لكن في الوقت نفسه أشعر باضطرابات عقلي وأشعر باحتياجه لراحة من كمية عصر أرشيف الحياة وألم السرد الفصيح.

حقا أنا بحاجة لإجازة من واقعي!

يا أللهِ! كبرت يا أمي بعدما كان هم ابنك الوحيد إجازة أو غيابا عن المدرسة. كبر ابنك وكبرت همومه وأصبح يحتاج إجازة من الواقع! كمية هائلة من الضياع.

تسكنني الآن قصيدة الشاعر الراحل "أحمد مطر" برائعته (مواعيد). تقول: فكم من مرة جئت إلى نفسي على الموعد لكن لم أجدني.

يا أللهِ! جميع الرائعين رحلوا، والزمان أمره عجيب يودع الرائعين بدم بارد ويستقبل الافتراضيين بصدر رحب كيف للزمان أن يبقى بلا سقيا؟ أو ليس الورد يموت إن لم نسقه بالماء؟ ألا يجدر بالزمان أن يموت إن لم نسقه بالأخلاق وإعمار الأرض؟!

أشعر الآن بأن الأديب الذي بداخلي بدأ يتبلور وينضج وثقتي بنفسي تتزايد لأن ها أنا الآن على مشارف العشرين الأول من روايتي المجهولة مبهمة النور!

بدأت أشعر وكأنها بنتي المدللة التي أخشى على مستقبلها فقط أغذيها بصدق أحاسيسي هذا كل ما يسعني فعله! رغم أنني لا أمتلك الخبرة الجديرة بالذكر فأرشيفي القرائي بضع روايات للمتألقة الجزائرية "أحلام مستغانمي" فوضى الحواس، الأسود يليق بك، نسيانكم، وللرائعة "نبال قندس" يافا حكاية غياب ومطر.

وكانت هذه الرواية هي الأولى لي قرأتها في عمر 17 ربما جذبني عنوانها الذي يحوي المطر ربما لعشقي للمطر ولشعوري بأنني أشبهه.
وقليل من يوميات الراحل "محمود درويش" التي شاءت الأقدار أن يصادف اليوم ذكرى وفاته.
يحضرني الآن قول لـ "جلال الدين الرومي":
"السلام على الضاحكين الذين قرروا العيش ولم تحالفهم الحياة بعد"، لست متأكدا إن كان انتظارا أو وهما!
كما أسلفت بأننا أمة عشقت الوهم أو لعلي ممثل يختبر أداءه بالدخول في الحالة! أما أضعف الاحتمالات أنني أحببت حالي، الانتظار والمأساة والبكاء على الأطلال!
إنها الأضعف لأنني لأعتقد بأنه يوجد إنسان بالغ عاقل يحب حياة الأموات! يعيش على مجموعة صور وذكريات! ينتقد بزمان وحاضر يصارع النوبات!
أشعر باحتياجي لرحلة هروب طويلة، سبات عميق أو بالأحرى غيبوبة لمدة سنتين، أريد أن أتجاوز هذه المرحلة بأسرع وقت دون أن أجبر عقلي على حضورها!

أريد لعقلي الغياب والغياب الأبدي. مللت قتال الأقدار الجائرة، مللت من حياة الرجاء. تبخرت أحلامي المتواضعة البائسة، وبقي حلم واحد حياة اللا مبالاة!

يرطأ علي الآن حلمي البسيط الذي كان يصوره عقلي بالأبيض والأسود، الآن أيقنت لقد سبقني عقلي بمراسم الوفاة! لقد كان يشيع جثمان حلمي أمام عيني ولم يمنحني واجب التعزية! لكن لماذا لم أعزِّ حلمي الصغير الذي لم يرَ شيئًا من حياته؟ هل لأنه ليس أول حلم بائس ولا آخر حلم يتوفى؟!

تحضرني الآن عبارة قرأتها في رواية "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي تقول: (أطلقوا الرصاص على أوهامي). كم يعشق البشر قتل أحلامنا بل حتى أوهامنا كم يتلذذون بتذويب أحبال الحياة فينا!

حياة جديرة بالسخرية!

أشعر أن روحي تطلب الاستماع لأغنية "تعب المشوار" فهي خير ما تصف حالتي الآن، تعب المشوار، ذلك المشوار الذي غالبًا ما أضرب بحجر كبير بتعليقهم أنني لم أر ربع ذلك المشوار وبقول أمي لم أر شيئا بعد، كنت دائما أقول لها ما علاقة العمر بالمعاناة؟!

وليس الطفل المصاب بالسرطان البالغ من العمر سبع سنوات يعاني أكثر من مئة رجل بعمر السبعين!

كانت دائمًا ما تنهي النقاش بتخفيفها من جدية الموضوع: "ليه أنت معاك سرطان؟".

كنت أكتفي بالصمت عندما يخدر مستوى كلامي متأملا أن يصيب كلام نجيب محفوظ بأن الصمت هو آخر محاولة لإخبارهم بما لم يفهموه.

ذهبت لفراشي للنوم وكانت ساعة الحائط تمام الساعة الحادية عشرة هذا ما أتذكره بعد وضع رأسي على الوسادة لم أعِ إلا هذا التوقيت البائس! كانت غفوة طويلة جدًّا، كانت غفوة لم تكن كما أردتها لكن الكحل أهون من الرمد، غفوة حل بها الليل، مرتان استيقظت وجسمي مضعضع كشعور من صدمته سيارة! لكن الفارق أنني أفتقد الدم.

كنت بحاجة للاستحمام بماء بارد هذه المرة لأستعيد الشعور الذي كاد أن يقتل بداخلي، يا ألله كم استأثروا الحلم فينا!

راودني تساؤل إلى أين يسير بنا "الباص"؟ هل إلى الهاوية أم إلى القمة أم إلى محطة مجهولة أم أن دولايب هذا الباص نائمة، والسائق إلى الآن لم ينتبه؟!

تساؤلات كثيرة بداخلي لكن في تصوري أن أقربها للصواب هو احتمال الآخر إن كان هو الصواب فكم نحن حمقى! كيف لباص يحوي بلايين البشر أن يسير ودولايبه نائمة ولا يوجد مخلوق! انتبه لهذا العطل!

يطرأ علي تساؤل الآن كيف يسير "الباص" دون دولايب؟! كيف يقطع هذه المسافات دون دولايب؟ التفسير المنطقي والوحيد أنه يسير بطريق منحدر نهايته الهاوية!

سبب تفسيري هذا لأن المثل الروسي الشهير يقول: نعم تستطيع العربة الخربة أن تسير إذا وضعت في أعلى طريق منحدر!

قبل إدراكي لعطل دولايب الباص كنت أظن أنه فقط الموت الذي يكون مجهولًا، كنت أعتقد جميع رحلاتنا القصيرة أو بشكل أدق المؤقتة نكون على أتم الاستعداد، ونكون نعرف الوجهة وبيانات الرحلة كافة!

لكن الموت: الرحلة الأخيرة لا نعرف موعدها أو حتى وجهتها، نعرف فقط أنها رحلة فضاء من الخيال كان يراودنا قبيل المغادرة!

أشعر بتخمة من كمية البؤس الناخرة في هذا العالم، فكيف لراكب أن ينتظر ويضيع سنوات من عمره في رحلة مجهولة الوجهة! رحلة

كان يزيفها بقوله رحلة سعيدة ليتفاجأ في منتصف الطريق ويشك في اختياراته هل اختار الحافلة الخاطئة!

ثم ماذا؟ ثم يقضي سنوات من أجله متسائلا: هل يرمي نفسه من الحافلة التي تسير بسرعة جنونية دون الوقوف! رغم فرقعة دواليبها! لكنها تسير بطريق منحدر نهايته الهاوية! هل يبقى منتظرًا أن يهوي مع الجماعة؟ أم يلقي بنفسه مواجها هاويته ليصبح وحيدًا في الهاوية! يا ألله لقد بدأ ينهار جسر تسلسل أحداثي، لا أعلم ما السبب لكن ربما لأنني انتقلت إلى رائحة الورق! فهاتفي بدا يعاني من تعليقات وامتلاء بالمساحة التخزينية! مما دفعني للانتقال للورق، أشعر بمعاناة روايتي البائسة وهي تنتقل من مكان لآخر، أشعر بها وهي تصارع من أجل البقاء! بل تكاد تحتضر فمؤلفها يتدين علبة السجائر! كيف له أن ينفق على ابنته التي يبكي انتظاره عليها بصدق من أكثر من شهر! كيف له أن يضع النور على انتظاره!

أشعر بأنني غريق روايتي، فقبل أن أكتبها كانت تساؤلاتي مشتتة ومبعثرة لا أشعر بضخامتها! أما بعد أول سطر كتابة إلى آخر رائحة حبر وصلت إليها أشعرغرقي بضخامة تساؤلاتي بازدياد ضياعي!

الآن أيقنت لمَ معظم الروائيين بؤساء فهم فئة من البشر لديهم القدرة على تذكر جميع أوجاعهم وتوثيقها باللغة العربية الفصحى!

ما الهوس الذي دفعني للكتابة؟ إن كان هوس الشهرة فالكتابة هي أبطأ سبل الشهرة! هل هو الثراء المادي؟ قطعا لا لأننا في زمان يرتفع به كل شيء إلا القراءة والثقافة تزهد! هل هو مجد أدبي هل هو مظهر (برستيج) كما هو حال الروايات اليوم.

أشعر بأن تساؤلاتي تغرق البحر بعينه لضخامتها! ربما والأقرب لمشاعري أنها جينات تولد في بعض البشر لأولئك البشر الذين يعصى عليهم الكلام غالبا لا يتأقلمون مع من حولهم، ينسجمون مع القلم ويبوحون له بهواجسهم، بمشاعرهم، بأحاسيسهم! كم أود لو كان ينطق القلم لسألته هل أنا كاتب؟ هل ستسامحني وأنا سبب في جفافك؟

بعد مراجعة سريعة لكامل الرواية كانت حروفها كثيرة وأسطرها أكثر، كان بعض من عباراتها محفزا، وكان البعض الآخر بائسا! انتابني لحظتها شعور الأب الذي كان يحمل ابنته وهي صغيرة، واليوم يراها عروسا تحمل أطفالًا، شعور المهندس الذي يتسلم أرضا خاوية ثم ينجزها لتكون بناءً ضخما وجميلا! شعور المعلم الذي يأتيه تلاميذ سنويًّا لا يعرفون الحرف! ثم بعد مدة وجيزة يعلمهم الحروف والجمل والقواعد والبلاغة! كان شعورا جميلا لكن كما جرت العادة لم تخلُ جملي من تساؤل! هل ستكون روايتي تلك

البنت التي كان يحملها ويرفعها للأعلى مداعبة لها، وهل سأكون أنا ذلك الأب! هل ستحملني هذه الرواية، هل ستكون ملاذي ذات يوم.

يسرقون رغيفك، ثم يعطونك منه كسرة، ثم يأمرونك أن تشكرهم على كرمهم يا لوقاحتهم!!

"غسان كنفاني"

حياة يندى لها الجبين! كم كنت أحب الطيران والتحليق لكنهم كانوا متيمين، وعاشقين لقص أجنحتي! ماذا يريدون فالأرض تكفي لجميع البشر، والرزق يكفي للجميع أيضًا.

هل كان حلمي مستحيلًا؟! حلمي الذي كنت أتستر عليه من أولى صفحاته لبساطته، لم أخفه لأنني روائي ماهر سرد نصف حدث، وأبقى النصف الآخر مبعثرًا بين الورق ليضمنه لكتابه أن يقرأ كاملًا فحتما ليس هدفي، ولا أعتقد أني أمتلك هذه المهارة، أخفيته بين كمية كبيرة من الورق ورائحة الحبر، لأنني أريد لأحد أن يشفق على حلمي البسيط، لا أريد حسنة من أحد، حلمي الذي يتميز عن جميع أحلام البشر فهو كل سنة يتضاءل ويذبل، حلمي الذي بات كوردة الياسمين في الوحل كهدوء الليل في الفجر كصرخة يتيم وألم مريض.

تساؤلات وضياع! وشتات وبعثرة قلب، الشاي هو الحل!

فجر الخميس، الآن أنا في المطبخ لتحضير الشاي وإني أحمد الله على نعمة الشاي! برأيي هي أشياء لا تشترى ولا تتشابه فيها فكل شخص لديه ما يقدسه ويشعر به، أجمل ما يكافئ به روحه هو ذلك الشيء! إن كان شايا أو كانت قهوة!

لكن لا أدري ما سبب عشقي للشاي رغم أنني أستمتع أكثر بشرب القهوة وخاصة الفرنسية، لكن أشعر أنه يفهمني ويشبهني بأشياء كثيرة.

الآن أنا على سطح المنزل أكتب.

سماء مظلمة تفتقد القمر، بيوت كئيبة تشبه كآبتي، وكأس من الشاي وسيجارتي بمناسبة هذه الليلة التي تفتقد القمر وقريحة الكتابة معا، أود أن أشكر شركاء هذه الرواية!

أود أن أشكر شركاء هذه الرواية! أود أن أشكر تطبيق"أنغامي" وملاحظات هاتفي! وعلبة سجائري! وسطح منزلي! ولن أنسى أن أخص الشكر وكل الشكر للشاي!

وأخيرا شكر العشرين سنة التي استطاعت أن تخلق مضغة رواية حتى الآن ولا أدري إن كانت ستكبر هذه المضغة ولا أعد نفسي

بالمحاولة! من زاد من آلامي وكان سبباً في هذا الضياع! من علم أنني بحاجة الحياة وأخفاها عن دنياي!

لمن أكتب؟ من ستحمل دماء البؤس هذا إذ كنت ظانا كاتبها لأطيق كتابتها؟ تناقض فظيع! يسكنني اليأس!

أتابع؟ أتوقف؟ لا أدري لكني بحاجة ماسة للاستراحة من تخثر دماء بؤسي الشنيع يا ألله حياة جديرة بالسخرية. فعلاً، فدائماً أسمع أن الأموات يحسدون الأحياء ويتمنون لحظة فقط إما ليسجدوا لبارئهم أو للاعتذار عن تصرف خاطئ أو لتوديع شخص ما اكتفوا منه!

أتساءل إن كان فعلاً أن الأموات يتمنون حياتي! أنا شخصياً فكيف يتمنون حياة تائه يبحث عن بقايا حياته، كيف يتمنون حياة شخص قضى على عشرين سنة من عمره انتظارا لأن تحالفه الحياة!

كيف لهم تقبل حياة راكب يرى أن حافلته تسير نحو الهاوية ليبقى متسائلاً طوال رحلته هل ينتظر هاويته مع الجماعة أم يلقي بنفسه ليقرر مواجهته لهاوية جديدة ولوحده! إنها حتماً لحياة الأموات!

بل حتى إنني أحسد الموت الفارق بين شتات حياتي والأموات أنني أنا محسوب على الأحياء، كضيف شرف يختطف دقائق من الحياة كل غيبوبة وفاة! حتى نظرتي للحياة نظرة لهفة واشتياق

وانتظار أما الموت فلقد قتل شعورهم بالحياة بشكل قطعي! ولا ينتظرون سوى فرج لظلام قبورهم!

يا ألله كم أصبحت الحياة أمنية! كم أصبح العدل صعبًا! كم أصبحت الحياة انتظارًا فقط! كم أصبح الموت مطلبًا!

من يدافع عن وطنه مجاهدًا، من يبر والديه مجاهدًا. أيضًا من يصمد على حياة كهذه مجاهد!

أشعر بإنهاك ظهري لحمله ثقل حلمي البسيط، ستشعرون بسذاجتي بعد معرفة الحلم، وقد تشعرون بتفاهة روايتي، كيف أبقي قارئا منتظرًا كل هذا الورق على حلم ساذج وأبسط من أن يحلم! وأبسط من أن ينتظر حتى!، لكن شاءت الأقدار أن يأتي زمان حتى الأحلام فيه تكون على قدِّنا! والجدير بالسخرية أنها تبقى أحلاما! إنه لحلم مخجل ووَجِلٌ أيضًا لكن لن أبقيه حتى كسر ظهري ولا أريد حرق أعصاب من يقرؤني!

حلمي الذي يختصر بأقل من سطرين، حلمي الذي كان فضفاضًا جدًّا لدرجة أنه لم يكتشف هويته حتى الآن، حلمي الذي قد تصدم من تمهيدي له لضائلة حجمه.

لكن دقت ساعة الصفر ويقول لكم حلمي: "صباح الانتظار أنا حلم هذا الشاب البائس، أنا عشرون صفحة من عمر روايته، أنا معاناته التي طرحها على عشرين صفحة بالعربية الفصحى!".

كم أشفق على هذا الشاب! لولا طلبه مني وتسلسل أحداث روايته لما كنت شاهدا على حلمه البائس!

لقد كان حلمه أن يُصدر كتابا وأن يحقق كتابه النجاح فقط، لم يكن يطمع بثروة مضنية بأن الكاتب يستطيع أن يحققها! كان يريد فقط نجاحا ومعرفة أدبية وأن يعمل في أحد متاجر الكتب ليناول بؤسه بيده للقارئ، كان يتوق لأن يرى وهو يتصفح حسابه الشخصي على موقع تويتر اقتباسات له مذكور عليها اسمه! يا ألله كم كان حلمي متواضعًا!

سأدخن سيجارة خيبتي. لم تكتف بخيباتي فقط وأعادت معها قلقا من الباص والرحلة المجهولة، رحلتي الغامضة المتهورة التي لم تخبرني بأية بيانات عن الرحلة، أو محطة الوصول، أو حتى موعد الوصول، لكن من خلال تعايشي معها عشرين سنة يمكنني القول بأنها هي رحلة صراع مع البقاء انتظارًا لينتهي الصراع، الانتظار هو رحلة قتال مع ذاتك وقتال أعدائك ستكون في بداياتها لديك من تطلب

عونه إن كان أبا أو أخا أو حتى إن كانت أمًّا سيكون لديك قلب يداري دموعك وندباتك!

لكن في عمر ما ستكون وحيدًا في المعركة، ستكون طبيبًا لجراحك، حكيمًا لحياتك، ستكون دموعك سجينة أعماقك تخشى إطلاق سراحها! هي رحلة أشبه بالبقاء أبعد من الحياة قد تكون هي مكيال تحملك للبقاء وانتظار للحياة، مختصر القول هي رحلة أكبر من الأدب العربي كاملًا أكبر بكثير.

قد نشعر بجزء من ضخامتها إن تأملنا السماء جيدًا.

"البحر" قالوا عنه "أبو اليتامى" روحه تطلبه الآن بعد إنذارات كانت في بدايات روايتي! لم أعد أستطيع التحمل ولا قدرة لي بتجاهل روحي! هناك معلومة يجهلها جميع من يعرفني إن كانوا أهلي أو حتى أصدقائي، فأنا شخص هادئ ونجول وانطوائي لحد كبير وجميع صنائعي أبذل قصارى جهدي لأقضيها بمفردي وبالكتمان كهذه الرواية حتى الآن لا أحد يعلم بمرارة انتظارها سوى أنا والحبر ورائحة الورق!

لن يعلم بها مخلوق إلا إن تمت نهايتها وأخذت وثيقة طباعة، وقتها مضطر أنا لإخبارهم لاحتياجي لبعض المال لكني أخشى! أخشى أن يكونوا القشة التي قسمت ظهر البعير، أخشى ردة فعلهم لكن

في الوقت نفسه أتوق لمعرفتها، أخشى أن يقولوا عن بؤس انتظاري بأنه كلام فارغ، أخشى أن يهاجموا إبداعي بأنه لهو ومضيعة للمال، أكثر ما أخشاه أن يكونوا هيئة رقابة على انتظاري بقولهم لنقرأها أولا لكن أعد مرارة انتظاري بأنه لن يقرأها مخلوق غيري حتى تصدر بشكل رسمي، ولن أكذب على نفسي بتوزيع نسخ مجانية لمن أعرفهم!

ليس كبرياء لكن لو وزعت الكتاب على مبدأ التسويق والانتشار سأعلن حينها سقوط روايتي! لأن كل شيء في هذا الكون قابل للتسويق والدعاية! إلا الأدب والثقافة فهي لا تشترى! تكتب فقط وينتقيها القارئ دون الانسياق للإعلانات!

وآخر ما أخشاه المصير، مصير روايتي كيف ستصل للقارئ لأنه لا قدرة لي إلا بطباعتها وأنا من سيوزعها، ستأخذ مني جهدا، ووقتا، وانتظارا طويلا وعصيبا لمعرفة الأصداء! لكن لا يوجد بديل.

راودتني فكرة وأنا أكتب الآن فكرة مضحكة وغريبة، لكن أعتقد بأن لا مفر لضياعي منها، الفكرة أن أقوم بعمل "بسطة" وبيع روايتي عليها! شعرت وأنا أفكر بهذه الطريقة بأنني واقف على رأس جبل، ووجدت فيه الثقافة تصارع لكي لا تسقط وتطلب

الاستغاثة والعون مني، وكأنها تقول إن لم تستطع إنقاذي من السقوط فأرجوك لا تكمل علي لا تركلني برجلك إلى الهاوية!

يا ألله ما هذا البؤس! ما هذا الكم الهائل من التساؤل والقلق! كم أود أن أقضي على بؤسي وعلى تساؤلي وقلق، كم أتوق لالتهام كبد انتظاري كم أنتظر أن أمثل بجثة انتظاري! سأنهي هذه الصفحة تاركًا الغيب لله ربي دون تساؤل وقلق، لفترة لي قد تكون مؤقتة للقارئ ستكون متواصلة حتى نقطة آخر سطر.

بعد ثلاثة أيام من تجاهلي لاستئناف الكتابة كنت كهاتف امتلأ بؤسا ومعلومات، فكان بحاجة إلى إعادة ضبط المصنع من كمية الفيضان الروائي غير المسبوقة بالنسبة لي.

في ثلاثة أيام راحتي لم أفعل بها أي شيء يذكر سوى أني حجزت تذكرة ذهاب وإياب للدمام على متن القطار، وستكون هي الأولى في حياتي سينطلق في السادسة مساء ثاني أيام العيد، وسيعود للرياض في صبيحة اليوم التالي والكثير من النوم، والكثير من الأكل، والكثير من أفلام الزعيم عادل إمام كنت أشعر وأنا أتابعه بأنه هو علاج مؤقت لبؤسي، تابعت له في هذه الثلاثة أيام ستة أفلام كانت رائعة وأفلاما برأيي أنها ظاهرة لن تتكرر، لكن سرعان ما اشتقت لبؤسي!

اليوم الاثنين الثامن من ذي الحجة يوم يفصلنا عن وقفة عرفة، المشهد الذي لم أشاهده حتى اليوم إلا على التلفاز، المشهد الذي يحتل سوادا بجمال بياضه.

كم كنت أتمنى أني لو كنت في هذا المكان ملبيًا. كم كنت أتمنى أن أعود كيوم ولدتني أمي!

يومان على الملابس الجميلة والنظيفة، يومان على بهجة الأطفال وبهجة الكبار بصلاة العيد!

قررت إن لم أعد اليوم ألا أعود غدًا لأني لا أفضل استراحة المسافر فهو يستريح بضع دقائق متأخرًا عن موعد الوصول، ويحرم راحته من أن تستمتع براحة ومتعة الوصول!

بعد قطعي لثلث مشوار الرواية، كنت أتساءل اليوم عن احتمالاتي الواردة لقفل الرواية، في الطبيعي كان هناك رقم أكبر ورقم أصغر ومن الطبيعي أيضًا أن يكون هناك جهد أكثر وجهد أقل، كان إنهاك صدري يرشدني للرقم الأصغر والجهد الأقل، وكان لسان حاله يقول: "لن يستفيد أحد من روايتك ولن تسكنها سوى الأتربة! لن تنجح فأنت على هامش هذه الأرض".

أما عقلي فلقد كان كعادته دائمًا ما يفضل الصعاب، دائمًا ما كان يبحث عن سبل التعب والشقاء، ولا أعلم لماذا، تفسيري الهزلي

الوحيد بأن بين عقلي وصدري قضية ثأر دموية! حاولت أن أكون أكثر رحابة مع صدري لكوني أشد أعدائه، حاولت أن أستمع لتنهيداته المتعبة المثقلة بالأحلام التي باتت تتساقط أرواحها يوما بعد يوم بين عقل متيم بالشفاء وصدر أنهكته الأحلام، باغتني الانتظار ليخبرني بشيء أو ليثبت حضوره، قال لي: "أنا شريك روايتك لا يمكنك تجاهلي".

قلت له: "أنت أيضًا جواز سفري وأنت شريك علبة سجائري! وأنت شريك راحتي بالمختصر أنت شريك حياتي".

شعرت حينها بأنني أفقد السيطرة على حياتي شعرت بأن هناك شيئًا ما يخطط دومًا لاحتلال حياتي، طرأ عليّ أن أكتب وأمجد نفسي بقولي أنني مجاهد يحاول أن يكمل حلم حياته فقط، وهو محاصر من ملايين الجنود من الحزن، والغياب، والانتظار، وتخمة من الخذلان، يا أله كم خذلت في حياتي! يا أله كم استرخصوا الدناءة والرداءة، وكم رفعوا سعر الأخلاق والإحسان (إنها حياة يقررها من حولنا)، قبل تسعة ساعات لو لم يحدث معي موقف خذلان، لما وجدت هذه الصفحة في روايتي! لن أستطيع كتابته الآن ربما في أثناء التنقيح! فالموقف جديد وربما أخفيه للأبد فقط سآخذ منه درسا قيما لكن راودني تساؤل عن معشر المخذولين!

عن مسببات خذلانهم، فوجدت أن هناك الهائمين بالطلبات والعطاء ويظنون أنهم يستحقون! وهناك النادمون على عطاء لم يشكر على أقل تقدير! يا ألله ما هذا الزمان الذي أصبح فيه طلاب الحياة يحلمون بأقل تقدير ولا يجدونه! هل أصبحنا طلابا فاشلين؟ أم أن الامتحانات تعجيزية! كنت أعتقد من وحي المحيط الذي ولدت به أن الإنسان بحاجة لصديق ليحمله بعضًا من أثقال العمر، ليس لدي شك عن صحة الكلام؛ إنما لدي تحفظ بسيط بشأن تقلب السنوات والأزمنة لكن الآن بعد محاولات فاشلة لقتل تحفظي البسيط، يمكنني القول بل القسم بمن سيكون مقصودًا في بياض غرفة غدًا!

إنه يمكنني حمل أثقال العمر لوحدي، قد يكون بصعوبة ولكن تبقى الصعوبة أفضل من الغفلة التي يرمي بها صديقك المزيف، أثقالك، لن أبكي الأطلال بفشلي في الامتحان، ولن أبكي، ولن أبكي، ولن أسعد بأنني طالب فاشل فقط سأكتفي بطرب مسامعي عندما أسمع الست وهي تقول:(كان عهدًا جميلًا) وسأكون أنا وأغنية (سهران لوحدي) والليل فقط. (أنا لن أحزن ولو خسرت ألف صديق في ليلة واحدة، أنا سوف أحزن فقط عندما أخسر صديقا واحدا كنت أظن به أنه ألف صديق).

أنا بحاجة الآن للاعتذار من إساءتي لنفسي، عندما كنت أخرج عن سياق الرواية متهمًا نفسي بالروائي الفاشل. كيف لكاتب أن يكتب مئات الصفحات في سياق واحد؟ كيف يتحكم بغضبه بخذلانه كيف؟!

بعيدًا عن رائحة الورق عندما نبني جسورًا من التفاؤل والأمل، وتأتي كلمة واحدة ناسفة هذا الجسر! هل نستطيع أن نبقى في نفس السياق! إذن كيف أتهم نفسي بالفاشل وأنا لست بصلابة الجسر ومع ذلك تنسفني طائرات الخذلان، والحنين، والغياب، ومرارة الانتظار! كم كنت طاغيا على نفسي. تأملت قلمي قليلًا ووجدته يكتب كل ما يدور بمخيلتي دون التحجج بوقت أو مكان وجدته مخلصًا، لا يبوح بأسراري ولا يفضحها حتى بعدما يجف وأهمله يبقى محافظًا عليها يا لنبالته!

لا أرى بها مبالغة إن كتبت عنه بأنه "الصديق الوفي"، المبالغة هي واقعي المبالغ فيه!

يا ألله لقد عاد هاجس ابنتي "الانتظار"، لقد عاد بعدما شعرت بضيق أنفاس الحياة ولسان حال يقول: ما مصير ابنتي البكر الانتظار؟ أشعر بهلع تجاه مستقبلها، كم أود أن أرى لها وقعًا مدونًا أن أطمئن على انتظاري، لم يعد الهاجس من فراغ فقبيل هواجسي

التي لا تنتهي كنت أشاهد حلقة من مسلسل " مرايا" الشهير للأسطورة "ياسر العظمة" كان عنوان الحلقة "ما حدا لا حدا".

وكان العبقري ياسر -أدام الله عليه الصحة والعافية- مؤلفًا لكتاب اسمه "ما حدا لا حدا". وكان هذا الكتاب عبارة عن مجموعة أوراق مكتوبة بخط اليد، وكان يبيعها على عربة يجول بها شوارع "دمشق" كانت حلقة مضحكة جدًّا، وبنفس الوقت جعلتني أطمئن ولو قليلًا بقولي أن أغلقت كل الأبواب بوجهي وقتلت ذريعتي!

سوف أكون مضطرا لأن أقتبس من هذه الحلقة قليلا ولأصدق القاع الذي بات سماء قالت نفسي لنفسي أنت على الأقل أفضل من ديار العظمة أنت كتابتك طباعة!

يا ألله كم أصبحنا نكذب لا لشيء فقط لنعيش، ترى هل سيحاسبنا الله على هذا الكذب؟! بدأت أتضجر من انتظاري المجهول، بدأت حياتي المزعومة تشكل فرارا من بؤسي الضارب الذي لو أتاحت له الأقدار ليأكل حياتي لكنت الآن مجرد بقايا بين أنيابه!

الآن الساعة الحادية عشرة.. سبع ساعات عن تكبيرات المؤذن عن تطيب وشياكة الرجال والأطفال عن جمال الصباح البهيج بدأت أشعر بقية الرواية بالنسبة لمؤلفها حقًّا يمكن القول بأن الرواية لن

تسمح لك بوضع نقطة آخر سطر إلا إن شعرت منك بالاهتمام إلا إن أظهرت لها كل ما بوسعك من حب لها لا تريد أن تشعر أنها وليدة الحبر والورق هي تريد أكبر من ذلك!

هي تريد أن تسرق راحتك ونومك تريدك أن تقلق وتسهر تريد منك أن تخشى مستقبلها وكما إنها ابنتك تريد من حكم الأبوة! وأنا أريد منها نقطة آخر سطر.

إن قرأ أحدكم هذه الرواية وعبر صفحاتها ليصل لنقطة آخر سطر ليعلم بأنني رزقت بمولودة أسمت نفسها "الانتظار" عمرها في الورق قصير جدًّا حتى إنها تجعلك متعجبا من فصاحتها وحكمتها!

لكن عمرها في سنوات الشتات كبير جدًّا، ينتابني تساؤل لماذا عندما كنت طفلا بريئًا كنت أرى الناس جميلين وسعداء وأرى أن الحياة سهلة سعيدة؟ لمَ فقدتُ رؤيتي الآن؟! هل تغيرت عيناي؟! هل تغير الناس؟ أم أن الزمان بذاته تغير؟

كنت لا أعرف همًّا ولا حزنًا لذلك صدق من قال: "ربيع العمر هي الطفولة فلا طموح نطارده، ولا هم يطاردنا".

أم هل أننا أصبحنا ضعفاء ونحن في زهرة شبابنا؟! يطرأ علي الآن في ساعة متأخرة من ليلة العيد أن أجد مسننا ليريح تساؤلي ليفصح لي عن التغير الذي حدث!

تقول الست الآن: (كان عهدا جميلا).

يا ألله كم أصبحنا نفتقد الحياة فجأة وأنا أشرب الشاي بسطح منزلي منتظرا زوال ليلة العيد الطويلة التي كل عام تبقيني على قيد التأمل لشدة ما تحمل من فقد من لا يشتاق بهذه الليلة للغائبين الذين كانوا يقاسموننا فرحة العيد، ما أبشع الغياب الذي لا يقتل إلا الأحياء الغياب الذي خلق مقولة محمود درويش: "أين يقع ذلك الغياب الذي رحل إليه الجميع".

هو قال بعد أن غرق في عتمة الغياب والوداع أما أنا ماذا أقول عن انتظاري هل أقول: "أين يقع الانتظار الذي انتظرته طيلة العمر ولم أهبط في مطاره بعد!".

ما أبطأ الطائرة، لو كنت مسافرا حبوا لكان يجدر بي الوصول! توجهت لفراشي للنوم حرصًا مني كي أكون شاهد عيان على نهار العيد وبعد أكثر من ساعة من التقلبات والهواجس لكمت الأرض بيدي وأشعلت كل ما يشعل! وها أنا الآن أكتب وكلي اشتعال!

يراودني إحساس بالتقصير أو الفشل، أشعر بأن عظام روايتي ضعيفة جدًا جدًا ، لن تستطيع أن تبقى على قيد صفعات الزمن، أشعر بأنني أحتاج لمزيد من الخبرة والشتات كي أستحق هذا الكم

من الصفحات، يبادرني الخيال اقتراحاته ليجعلني أشعر بأنني بحاجة لمزيد من الثقافة والقليل الكثير من بحر المعرفة!

يقول لي عقلي: إنها أولى محاولاتك لن تكون إلا كذلك ومحال أن تكون كاملة خالية من العيوب (سبحان من جعله يبرر إخفاقي).

أما قلبي سبحان من جعله يتلذذ بقصف جسور أحلامي! قال لي: من سيقرأ! من سيقرؤك؟

سألته: هل يعقل في أرض تحوي مليارات البشر لا يوجد من يقرؤني أو يفهمني أو حتى يشعر بي! يا ألله ألم يجدر وصولي؟ متى سأصل؟ هل ستقلع حياتي من جديد بعد هبوطها الاضطراري الطويل! هل تحالف الحياة رواية؟ هل سيحترمون مؤلفًا يبيع مؤلفات بؤسه بالشارع كالخضار والدجاج أم أن الثقافة أصبح مكانها الطبيعي بين الخضار والدجاج! ما يحزنني أمي التي كانت سببا بعد الله في ولادة هذه الصفحات يحزنني أنها لن تستطيع قراءة كتاب من أنجبته، يحزنني أنها لن تفهم غالية الصفحات ولو قرأتها لها! صمت كثير وفنجان قهوتي وسيجارتي رحت متأملا من نافذتي المطلة على الشارع الذي كان قبل ساعات يضج بالحياة. الآن لقد احتله السكون والهدوء ولم يكن هناك مؤنس لوحدتي سوى أم كلثوم! بدأت أستشعر بؤس الروائيين رغم إدراكي بأنني

لست منهم فهم أناس يكتبون السهر والناس نيام! يكتبون البؤس والناس تضج فرحًا بالعيد! أتساءل الآن، هل خلق الله الروائيين ليكتبوا الجانب الفارغ المهمش الذي لم يشبعه البشر!

كعادة واقعي انتهى بالنسبة لي العيد فور انتهاء صلاة العيد مباشرة لا أصدقاء يعايدون ولا أقارب، ولا حتى زيارات لي سوى للورق! لم أتلق في هذا العيد إلا معايدتين الأولى كانت من أمي والثانية كانت من إحدى شركات الاتصالات المحلية للأسف أنها ليست نكته! يا ألله كم هي حياة يندي لها الجبين بعد أن شيع جثمان بؤسي أمام عيني، بعد صلاة العيد مباشرة قررت أن يكون حدادي في أحد المقاهي وها أنا الآن وحيدًا في المقهى أكتب مرتديًا نظارتي الشمسية وسماعة أستمع فيها لفيروز ولا ألفت انتباه من حولي إلا بكثرة دخان سجائري! إنه العيد الأول الذي شعرت به إلى هذا الحد من الوحدة! هل لأنني خسرت صديقًا زائفًا أم لأنني قررت الكآبة فلامس الحبر جراحي؟ أيا كان السبب لا يهم، الوحدة جميلة لكنها تقتل وتعذب! أشعر بأن قلمي بدأ يبدي لي عصيانه وكأنه يطلب مني أن أعود لشفافيتي لكن لماذا؟ هل لأني لا أذكر الحب سوى برؤوس أقلام وأمضي وكأنه لا يعنيني بشيء وهو يشكل مساحة ضخمة من خيالي! لكن عذرًا قلمي لن أفصح

أكثر فأبسط حقوقي شيء من الخصوصية ثم لأن روايتي الانتظار فقط، الانتظار الذي أصبحت أصول وأجول هربًا من مواجهته! ما أبطأ الطائرات! أباد السفر شعوري بالحياة أريج الوصول أيا كانت الوجهة وأيا كانت وسيلة النقل وأتوق الوصول فقط.

أذكر أنني عدت للمنزل بعد صلاة العصر وكنت في حالة يرثى لها، كان قلبي مثقلًا بالهموم كإسفنج أثقله الماء حتى إن إخوتي قد لاحظوا بأن الهدم بدأ يمضمض أسنانه بعد أن أكلني كوجبة دسمة، اليوم فقط أدركت بأنني أنا الإسفنج كانت عائلتي متعجبة جدًّا، فقال لي أخي الأكبر بأن وزني قد نقص كثيرًا! لم أبدِ من رثاء حينها كنت أقول لنفسي ربما أخي يظن هكذا لأننا لم نلتق من أكثر من أسبوعين، ذهبت لغرفة أمي وأنا حاملٌ باقة من الورود لأهديها لها لأن أمي هي الفرحة الوحيدة التي تمكنت من انتشالها من هذا العيد البائس! فبعد المعايدة والسلام قالت لي أمي بأنني قد فقدت وزنًا كبيرًا، صعقت! وتجمدت! وبدأت أتعجب من هذه الليلة، أمي التي كانت تحتضن بؤسي قبل ساعات ولم تبدِ لي أي شيء تجاه وزني! تساؤل فظيع! هل أصبت نظرية الماء والإسفنج؟ هل روايتي التي كنت أظهر لها مشاعر الأبوة شكلت تحالفًا مع ليلة العيد لانتشال وزني وقصف فرحتي! هل استحق جسم جسما

كهذا جسم غير المتناسق بتاتا، جسم نحيل ورأس مثقل! أقسم لو أنني لم أخض شوطًا كبيرًا في هذه الرواية لتجاهلت حلمي البائس وشيعت جثمانه في صالة أفراح تضج بالأغاني احتفالًا بمصرعه، بدأت أشعر بتغيير اسم ومعالم روايتي ليست الانتظار في الغالب أنها "ضياع الروح".

يمكن أن نتحكم في أغلب الأشياء البعيدة عن الورق لكن من يقترب من سياج الورق سيكون على يقين بأن حال خوضه مع الورق سيكون إنسانًا ضعيفًا يبدي تنازلاته عنوة بالكثير من الهدوء والأكثر من اللؤم، هل يمكن لشاعر التحكم بكراته أو حتى واقعيته حين يبدأ الورق سحب شعر الغزل من دمه دون إذن! حتى الروائي محال أن يستطيع التحكم بعنوان روايته! مستحيل أن يبقي بنفس السياق أو أن يغلب فيضان صدره المرشوش على مئات الصفحات من الورق! ما نوع المخدر الذي تحويه رائحة الورق التي تجعل من يستنشق رائحته يعادي النوم ويصادق مجبورًا وصاغرًا صديقي السوء الليل والسهر! وتجعله مدمنًا لهذه الصداقة! لا يستطيع التفريط بها، هل هي صداقة مصلحة مؤملًا بها المجد الأدبي أصبح وهمًا، يا ألله كم كنت أقلل من شأن الأشياء التي أجهلها! كم كنت قاسيا على الروائيين بقولي إنهم هم من يحملون سلم الحياة

بالعرض، يشربون القهوة دون سكر، يبالغون بالتنظير، يكذبون ويبالغون في روايته! الآن أدركت أن كلامهم ليس تنظيرًا بل هو جديرًا جدير أن يكون واقعهم الذي بات الآن واقعي. أما حملهم السلم بالعرض فليس إلا محاولة لتنظيف رواسب التخلف الراكدة في أرصفة طريقهم الذي بات طريقي، وأخيرًا عن شربهم القهوة دون سكر فهي ليست إلا محاولات للحداد!

بعد الحداد الذي باغتني صبيحة العيد شعرت بإنهاك وهلع كمن دفن ابنه، وبكى عليه في فرحة العيد! وبعد قلقي وكثرة تساؤلي وبعد افتقاري للأذرع، وسبل الحياة، وطوق النجاة، وأزمة المواصلات! لم أجد من مفر إلا النوم أو بشكل أدق غيبوبة شكلت فيها فرارًا من الوعي لمدة كانت مريحة لحد ما لإنهاكي.

كان غيابي قصيرًا جدًّا حتى إنني أحسد من يعانون من غيابي غياب استمر لأربع عشرة ساعة، استيقظت فيها في أواخر صديقي السيئ الليل حتى أمي كانت متعجبة من كثرة غيابي عن الوعي، قالت لي وهي تضع العشاء: " كل هذا نوم!" رَدَدْتُ عليها بكذبة بيضاء بأن جسمي كان منهكًا.

في الحقيقة أن صدري هو المنهك، عقلي المنهك فأنا لم أبذل أي مجهود جسدي، أنا فقط أبذل مجهودي ذهني! كنت أخشى أن

تقلق علي لذلك لم أسع لتصحيح معلوماتها الخاطئة! هي تظن أنني كنت نائمًا لذلك قالت:" كل هذا نوم"، لو كانت تعلم أن ابنها هارب من شتاته وضياعه لجاءت بعد استيقاظي لتحكي لي القصص وهي تلامس جبيني؛ لأتمكن من مواصلة هروبي! وعند إعلان عفو عام في الصباح يشمل انتظاري لرميت على أمي الصباح بقول: " صباح الخير يا أمي بتوقيت النائمين هربًا".

الآن في صالة الانتظار منتظرًا موعد القطار، بقي على انطلاقه خمس وأربعون دقيقة، كان بالنسبة لي أبسط انتظار دام لخمسة وأربعين دقيقة فقط، أما بالنسبة لمن هم حولي كانوا ضجِرين ومثقلين بالانتظار! كنت أتساءل عن سبب ضجرهم، هل لأنهم لم يعتادوا على الانتظار كما اعتدت عليه أنا حتى إنه أصبح جواز سفري؟ أم أنهم عانوا من الانتظار أكثر مني فاغتال الانتظار طاقتهم وصبرهم؟ إن تحدثت عن الواقع فإن عمر جلوسي في صالات انتظار الرحلات لا يتجاوز الأربع ساعات! لكن إن تحدثت عن الخيال الذي يرفض الرحيل ويرفض أن يكون أمرًا واقعًا فعمر جلوسي في هذه الصالة كان عشرين سنة لدرجة كنت أشعر فيها وكأنني بمنزلي وكان من حولي هم ضيوف لدي، كنت حاملًا كيسا فيه أغراضي لا أحبذ الحقائب في السفر بل أكرهها

فهي تذكرني بالمتشبثين في البقاء، تذكرني بالذين حالفهم الاستقرار، كانت محتويات الكيس أكوابا ورقية وشاحنا وحافظة للشاي، وبضع حبات من حلاوة العيد كانت قد وضعتها أمي وثلاث علب سجائر، ونظارتي الشمسية التي لا أعلم عن سبب احتياجي لها فرحلتي كانت رحلة انتظار زوال الظلام لن أتعرض فيها لأشعة الشمس طوال الرحلة.

قمت بشحن هاتفي لتتسنى لي الكتابة لأنه لا مكان للورق في هذه الرحلة، وأنا أشرب كأس شاي الانتظار، كان بجانبي رجل على مشارف الخمسين من عمره، وكان معه ابنته التي كان يفترض أنها في ربيع العمر، كانت عيناها بائسة وتفيض ألمًا وأنا أخرج علبة سجائر من الكيس طلب مني أبوها كوبا من الشاي، قمت لإضافة الشاي وإعطاء ابنته حلاوة العيد، عدت لمقعدي وأخرجت سيجارة قابلة للاشتعال، تأملت عيني الرجل وشعرت أنها تقوم بالتمهيد لكلام ما وأنا أتوق الاشتعال، تأملت عيني ابنته، وتأملت الأطفال المنتظرين، قمت بتأجيل اشتعالي وقمت من على مقعد انتظاري أريد الشارع للتدخين.

وأنا في طريقي إلى اشتعالي أوقفني الرجل كان يقول: دخن عادي ما في إرشادات تمنع التدخين!

قلت له: وما ذنب الأطفال أن تستنشق روائح الاشتعال بسبب عدم وجود تنبيهات بالمنع!

تجاهلت نصيحته الآثمة وخرجت للشارع عندما عدت لمقعد انتظاري وجدت أسفل مقعده سيجارة قد معسها الغضب!

جعلني المشهد في حيرة من أمري وصرت أتساءل، ما الأسباب التي جعلته لا يتحكم بزمام اشتعاله؟ وبين التساؤل والانتظار أطلقت رسالة الانتظار سراحنا لنتجاوز مرحلة انتظار المغادرة إلى مرحلة انتظار الوصول! يا ألله كم احتل الانتظار حياتي البائسة، ها أنا الآن على مقعد انتظار القطار لأول مرة سعيد جدًّا لأنه تجدد مكان انتظاري وحزين جدًّا لأنه لم يحن موعد انتهاء انتظاري! كنت متناقضا جدًّا، كنت سعيدا جدًّا وحزينا جدًا! لا أعلم كيف اجتمع المتعوس على خائب الرجاء! لا أعلم كيف شكل حزني هدنة مع سعادتي!

وصل القطار لمحطتي المقصودة، وصل بعد انتظار طويل جدًّا وصل لوجهة لا تتكافأ متعتي بها مع الانتظار يا ألله ما أقوى الانتظار وما أبشع جبروته، دائمًا ما يسحق متعة وصولي، دائمًا ما أكتبه بالعربية الفصحى بصدر رحب، يا له من طاغية! ويا لي من راضخ!

نزل ركاب القطار، وبقي القطار منتظراً منتظرين جددا، ووصل المنتظرون للوجهة، وغادر منتظرون الوجهة!

خرجت للشارع لأبحث عن تاكسي لينقلني للبحر، وقف لي تاكسي وقبل أن يسألني الوجهة قلت له: البحر.

صمت سائق التاكسي وبدأ بالسير، بعد بضعة أمتار قلت له: ما سألتني وين بالظبط!

فقال: يعني أكيد شخص مثلك مو جاي يسبح عالشط! ما عليك راح أوصلك لأفضل كورنيش عندنا!

شكرته مع ضحكة فاضحة شعر بها كما شعر بمقصدي دون السؤال!

الله سبحانك يا بديع المشهد الذي أمامي لأجد له بكامل اللغة العربية من تعبير سوى أن أردد وأسبح بصنائع البديع! سبحان الله بحر رغم حلكة ظلامه إلا أنه يشعرك بالاتساع والاحتواء يُخرج صوتا غير مسموع بعد أن يراك متأملًا فيه ويقول: "أي فيه أمل" يجيبك دون سؤال، يقبل نقاشك مهما احتد! خير مستمع لأوجاعك، الحمد لله الذي مكنني من أن أغلب أحد أعداء روايتي.

أريد الآن أن يظهر تساؤلي الذي جاءني قبيل الوصول وأنا في القطار الذي كان يقول: هل يستحق البحر انتظارك له ما يقارب العشر ساعات؟ أين تساؤلي؟!

لا بد أنه هرب ليذيقني طعم أول انتصار لي في هذه الرواية في أولى انتصاراتي لأن أنسى أن أشكر صديقي القوي البحر الذي شاركني هذا الفوز وكان سببًا أساسيًّا فيه صديقي البحر!

لن يكفيك الشكر سنتحدث سويًّا حتى بزوغ الفجر.

بعد شكر البحر والتأمل قليلًا.. احتضنتني العشب والشاي.

أرحت جسدي الذي أنهكه السفر بالتمدد على العشب، وأخرجت حافظة الشاي، وكانت لا تحوي إلا كأسا واحدة. رحت أسترق النظرات حولي، ومن حسن حظي كان هنالك مقهى يبعد أمتارا فذهبت إليه لتعبئة الشاي، وعدت سريعًا لمكاني. وأيضًا من حسن حظي أن صادف موعد وصولي أواخر الليل للبوح للبحر بكل حرية وأريحية بعيدًا عن كثرة المشاة، وبعيدًا عن ضجيج الأطفال والسيارات!

هنا والآن الليل فقط، والهدوء، والسكون، والتأمل، والذكريات والبوح ونفحات طفيفة من البراد! يا أله كم كافأ الحظ والطقس انتظاري! رحت متأملًا الظلام الحالك للبحر، كان مريحا للعين والأعصاب لكن كان ينقصه شيء واحد، أن تقطع الكهرباء أو أن تتعطل إنارة الكورنيش؛ فقد كانت تشوش على حلكة تأملي!

وبعد تنهيدة عدم اكتمال تذكرت أن نظارتي الشمسية كانت قد شاركتني رحلتي دون علمي فارتديتها ورحت متأملًا حلكة الظلام لأكثر من ساعة، لم أقم حينها بأي مجهود سوى الاستماع لأم كلثوم وشرب الشاي والتدخين والتأمل.

بعد أن شردت نفسي مني وذهبت لتريح نفسها قليلًا بالتأمل، وبعد أن عاد الشعور والإدراك معًا فرض التعجب وجوده، وطرح تساؤلاته على نظارتي الشمسية التي أكملت نواقص دخولي حالة التأمل. هل كانت من القدر أم مجرد صدفة أم أن صديقي البحر كان يشي لها بالحالة قبيل السفر! لا يهم مهما كانت الفرضية، المهم بل الأهم أن أشكر في هذه اللحظة أصدقائي الأوفياء الذين كانوا يقرؤونني من أولى صفحاتي، شكرا قلمي، شكرا نظارتي، شكرًا بحجمك يا بحر!

يا ألله! كم أراحتني هذه الحالة، حالة خافتة هادئة لا تحب تشويش النور، تحب فقط تأمل الظلام الحالك، تحب أن تبوح للظلام، لا تحب أن ترفع عليها أصابع الاتهام بتهمة البوح للنور، أشعر أن عيني أرهقها التأمل أتعبها تزييف الحقائق والضحك على الذات! شعرت أنها بحاجة للنوم والراحة فقمت بوضع هاتفي وأشيائي الثمينة في جواربي، ومن حسن حظي أن البنطال كان ضيقًا من الأسفل

ليداري أشيائي. بالنسبة لهاتفي هو لا يستحق هذا الحرص كله، لكنه كان يحوي بداخله غالبية صفحات ابنتي الانتظار، شعرت بحرص الآباء على الأبناء فهم لا يكافئون أنفسهم بالنوم إلا في حال اطمئنانهم على أبنائهم، شعرت لوهلة عند تمدد على العشب بالصقيع حاولت المقاومة لكني فشلت فذهبت لأحد الكراسي الخشبية قد لا تكون دافئة لكنها قد تمتص ولو قليلا صقيعي! وعندما وضعت يدي أسفل رأسي، وتأملت السماء تذكرت أن الشتاء بقي عليه أكثر من شهرين فتعجبت من الصقيع الذي سكن جوارحي في الصيف من أين أتى؟! لمَ سكنني أنا؟!

أعاد التعجب شريط ذكرياتي، وتذكرت فيلما فرنسيا قصيرا من وحي الصقيع! كانت أحداث الفيلم عن مسن مسافر على متن القطار، وعند وصولهم إحدى المحطات نزل إلى دورة المياه، وعندما عاد ركب عن طريق الخطأ ثلاجة القطار وأغلق الباب عليه، وأكمل القطار سيره وبقي المسن وحيدًا في الثلاجة يصارع الصقيع، كان يرتجف من الصقيع وملامح وجهه أصبحت زرقاء من شدة الصقيع، كان يريد إغاثة بلحاف دافئ أو شيء من هذا القبيل، وبعد ساعة ونصف من صراع الصقيع استسلم المسن للصقيع، وأخرج دفتر أرقام صغير كان بحوزته وكتب فيه وصيته!

أُغمي على هذا المسن وعندما وصل القطار لآخر محطاته، وعند تنظيف القطار استعدادا لمحطات أخرى، وجدوا المسن فطلبوا له الإسعاف، وجاءت الشرطة للتحقيق فاكتشفوا أن الثلاجة كانت معطلة منذ زمن بعيد، فكيف مات هذا المسن؟! كيف تجمد في ثلاجة معطلة؟!

رغم نسياني لبعض من أحداث الفيلم لكن أكاد أَجزم أن سبب وفاته هو عبقريته في التمثيل، لا أقصد المسن الذي كان في الفيلم أقصد أن هذه القصة وقعت ذات يوم بطريقة أو بأخرى، في الواقع السبب سوف يكون عبقرية في التمثيل كم أصبحنا ممثلين بارعين! كم أصبحت سهلة علينا حالة الصقيع ونحن في الصيف! كم أصبح الكلام أبرد من الشتاء! كم أصبح الخوف أبرد من الإسكيمو! يا ألله ما أبرد ذلك الكلام الذي يحرمنا الدفء، ويشعرنا بالصقيع ولو كنا في أدفأ بقاع الأرض يشعرنا بحاجة إلى حضن، ألم يشعرنا بضآلة أعمارنا أمامه؟!

بعد غفوة تعجبي المؤقتة أغمضت عيني التي أتعبها السهر، كنت أشعر بأذني التي كانت مطروبة بصوت الهدوء وبالصوت المعدوم، كنت أشعر بتنهيدات راحتها! بعد إقلاع طائرة راحتي شعرت بهمسات حولي وكما جرت العادة هبطت طائرتي هبوطها

الاضطراري المعهود الطويل! وإذ برجل يبدو لي أنه بعمر الستين كان يطلب مني الاستيقاظ، شعرت أنه بحاجة لمساعدة، لكن سبقني بقوله بعد أن نهضت من نومي: مساعدة يا ابني؟

قلت: لا شكرًا.

بعدما تعارفنا أخبرني أنه مخرج وصحفي في إحدى الصحف المحلية باغتني فجأة ونحن نتحدث فأخرج من جعبته نايًا، عزف بدهاليز روحي نهاية الانتظار. حين انتهى من عزفه قال بأن هذا أقل شيء وقال إنه كان سابقًا يعزف أغاني لفيروز وأم كلثوم لكنه ترك العزف فترة طويلة ثم سرعان ما سحقني بروعة شخصيته ليخبرني بأن هذا الناي من صناعته!

ثم وصلت لصالة الانتظار قبيل الموعد بأربع دقائق!

ها أنا الآن ثانية على مقعد انتظار الوصول!

ظلام حالك زدت حلكته بنظارتي الشمسية، وزادت فجاجته بصوت أم كلثوم. أذكر حينها أنني بقيت حوالي ساعتين في هذه الحالة الحالكة لا تساؤلات ولا قلق ولا حتى تفكير، كنت منهكًا جدًّا وعيناي قد ذبلت من النعاس. كانت هذه أول مرة مذ أن بدأت الرواية أبقى لمدة حتى لو كانت قصيرة دون تساؤل وقلق

ودون انتظار! حتى رغبة الوصول لم أكن مباليًا بها كنت فقط أتأمل الشوارع بعيني الذابلة وبنظارتي الدامسة!

كانت أعصابي هادئة جدًّا، لأول مرة أعصابي تتمكن من هزيمة انتظاري، فهي لم تبال بطول المسافات ولا بساعات الانتظار الطويلة كانت مسترخية على مقعد انتظارها دون أن ينغص عليها الانتظار! كانت حالة مريحة جدًّا ورائعة، ولكن للأسف حرمني النوم من حق التمتع بها كاملة ورحت في سبات عميق، ما عاد لي الوعي إلا بعد أن بدأ القطار تهدئة سرعته والركاب يتحمدون على السلامة! احتقرت النوم، رغم أني أعشقه وأقدسه احتقرته، لأنه جاءني كما جاءت أمنياتي، جاءني في الوقت الذي لا أحتاجه فيه، جاء متأخرا جدًّا وأمنياتي أيضًا جاءت متأخرة جاءت عندما رفعت سقف أمنياتي.

وصلت للمنزل وبعد السلام على أمي ذهبت لغرفتي للنوم كنت وقتها منهكًا جدًّا ومغلوبًا من جنود روايتي وجنود الحياة افتقدت حليفي القوي البحر، الآن أدركت لماذا لا أتمنى أن أسكن على البحر، الآن أدركت أنني سئمت الهزائم. الآن بدأت نهايات روايتي تصارع الوجود تريد مني أن أكتبها تريد أن تقرأ!

من قارئ ليس موجودًا بدأت أفقد سيطرتي على إبقائها متخفية في المزيد من الصفحات. بدأ سيف انتظاري بطعن يدي ليجعلني مجبورًا إما على اختصار الرواية والنهاية أو أن أتوقف عن الكتابة! بدأ يشح خيالي وكأنه نهر قد جف لم يعد يرى إلا النهاية، بدأ الهروب يتسلل لدهاليز روحي التي لا تطلب الآن بعض الانتظار بعد جفاف خيالي الذي سئم الانتظار، ولم يعد ينسج سوى النهاية، قررت النوم للهروب من النهاية ليس خوفًا هذه المرة لكن فقط تأجيلا للمبارزة التي سوف تجمعنا أملًا أن ينسج خيالي شيئا بعد راحته غير النهاية! تمكنت من النوم بصعوبة بالغة بسبب الأرق مما جعلني مضطرًّا لتناول حبوب منومة رغم أنني لا أود الاعتياد عليها كانت غفوة طويلة.

استيقظت على صوت جميل ومريح للروح كان يقول: "الصلاة خير من النوم"، يا ألله شعرت وكأن هذا النداء موجه خِصِّيصى لي رغم معرفتي بأنه يخاطبني ويعاتبني على طول فترة الغفوة التي عشتها، قمت للوضوء، وتطيبت كنوع من الاعتذار عن الغياب الذي طال، كنت أتمنى أن تكون العودة الأبدية التي لا يعقبها انقطاع!

ذهبت للمسجد لأستشعر نقص وزن رأسي، كان الطريق طويلًا وقصيرًا، كان مريحًا وتغلبه الطمأنينة، كانت أول مرة مذ وقت قصير أشعر برشاقة رأسي!

في أثناء عودتي أدركت سبب استيقاظي على هذه الجملة وبعد ثلث ساعة من استيقاظي أيقنت أنها خير من النوم حقًّا، إنها خير من النوم!

قبل أن أعود للمنزل مررت على الدكان القريب من المنزل لشراء العسل، في أثناء الحساب تذكرت أنني لا أحمل المال، طلبت من البائع أن يسجلها على الحساب فرفض، وذكرني بأن حسابي متراكم عليّ من أكثر من شهرين، فقمت بإعادة العسل للرف دون مجادلة أو وعود كاذبة بالسداد ثم فَاجَأَني بوضع العسل في الكيس وإعطائه لي، ذكرته بظروفي وبقوله إنني لا أستطيع السداد الآن، ولكنه وافق على أخذي العسل.

أخذت منه العسل وكان طريقي للمنزل محشوا بالتساؤل لماذا رفض بيعي العسل، ثم بعد ثوانٍ أصر على أن آخذه؟ هل تراه تعجب من اللا مبالاة التي قتلت بداخلي الرجاء؟ أم هل تراه أعجب بشفافيتي السوداء!

وصلت للمنزل وقمت بإشعال التلفاز بحثًا عن إحدى المسرحيات القديمة الخالدة فالعيد أصبح موسم تذكرها وأنا أقلب في القنوات وإذ بالعيال التي وافتها المنية تغني "رمضان جانا" في مسرحية "العيال كبرت"، البهجة المستمرة على مدى ثلاث ساعات، الفرحة التي أصبحنا نسترقها في كل عيد ونفتخر بنجاحها الذي دام على ما يقارب الأربعين سنة! ونبكي على عدم الدوام في هذه الحياة، عيال مثلت وكبرت وشابت وتوفيت، وما زالت بهجتهم تطغى على عبوس الجبين! ما أعظم هذا الجيل كم أتمنى لو كنت من جيلهم!

العبقري أحمد زكي، والجريء سعيد صالح، وملك الخروج عن النص يونس شلبي، والحنون كريمة مختار، والأب الطيب حسن مصطفى اللهم ارحمهم جميعًا واغفر لهم واجزهم خير الجزاء على بهجتهم لنا التي نختطفها في كل عيد! هذه البهجة التي نقدم على سرقتها في كل عيد وعن حسن نية نسرقها لمداعبة تجاعيد السنين!

زمان مخيف أصبحت تتساقط فيه أوراق الحياة بكثرة، وفي كل الفصول، في الأمس رحل أب الرواية العربية حنا مينا عاشق البحر وكاتب الكفاح والفرح وما بينهما كما يصف نفسه! واليوم رحل الخلوق ياسر المصري إثر حادث سير، رحل نمر بن عدوان، أشعر بأن الزمان مصاب بداء خطير وباء لا يعطي سوى الموت

والمرض، الفراق والغياب والانتظار! وباء يؤثر على معاملتنا مع البشر لا يؤثر فحسب بل يجعلنا نخشى من أن يغضب منا شخص اليوم فيغيب غدًا، من أن نقسو اليوم ونمرض غدًا ويشفقوا علينا شفقة لا نستحقها! يا ألله كم صادف الموت صفحاتي صادف في أولى الصفحات ذكرى رحيل محمود درويش، نعت صفحاتي حنا مينا وياسر المصري، كتبت صفحاتي رثاء للعيال التي مثلت وكبرت وشابت وماتت! أشعر بتخثر دماء صفحاتي، أشعر بلوعة نفسي من هذا الكم الهائل من الموت، والغياب، والحنين، والانتظار، أشعر بأنني بحاجة لاستنشاق رائحة عطر تؤجل من استفراغي!

ذهبت لخزانتي لارتداء نظارتي السوداء كنوع من الحداد على دماء صفحاتي! يا ألله أشعر باستنزاف خيالي لقد أصبح لا ينسج سوى وباء الحياة لم يعد ينسج براءة الأطفال، لهو الشباب والطموح والأمل، لقد بات يقتل بداخلي شعور الحياة، ويحد عليها دون محاولات هروب أو تجدد في الفكر لتقبل الحياة! لقد كان يتلذذ بقتل آمالي أو ربما أوهامي، راودتني فكرة مجنونة من وحي واقعي أن أكتب إعلانا بإحد مواقع التوظيف محتواه: مطلوب موظف، المسمى الوظيفي: صديق، المرتب: يشاركني كل ما أملك. المؤهل:

غير مطلوب. المهارات: السخرية خفة الظل. ولا يجيد التحدث بأي شيء يخص الواقع فقط عن الكورة والألعاب والتفاهة والسطحية! حياة جديرة بالسخرية!

صعدت للسطح لتسميد الريحان ولأشرب الشاي وأنا أستنشق جمال روائحه على أمل أن تقتل بداخلي رائحة الوباء! وفي محاولة لتبديل الجو الدرامي الذي يسكنني إلى الجو الرومانسي قمت بتشغيل أغنية "وبتسألينى" لمرهف الإحساس وائل جسار في محاولة إنعاش الحب وقصصه التي دفنتها رواسب الحياة. في محاولة لتذكر ما تبقى من الحب على هذه الأرض ومحاولة استخراجه من أنقاض السنوات الغابرة! استطاع صوت "وائل جسار" أن يلهب ذاكرتي قليلًا لكن خيالي أبى أن ينسج جسورًا من الحلم والأمل على الورق! التمسوا العذر لسواد صفحاتي فهي لا ذنب لها بطوفان خيالي، وخيالي لا ذنب له بطوفان الحياة! اعذروا قلمي الذي أبى أن يزيف واقعي دائمًا كنت أحاول الهروب من واقعي وإبعاد الملح عن جراحي كنت أود ملء صفحاتي بخيال كاذب سعيد لكن قلمي كان يعاندني ويعلن عصيانه! حال عودتي للصدق كان ينزف كميات هائلة من الحبر! كم أحسد أولئك الذين يعيشون قصة حب على كوبليه من حليم أو أم كلثوم، كم أتمنى لو وهبني الله قدرتهم

على عيش قصص الحب. لماذا ليس لدي قدرة على أن أعيش قصص الحب التي باتت بالنسبة لي أوهاما؟! لماذا خيالي سعيد بحداده الذي طال؟!

لماذا خيالي يكويني بكبريائه على الفرح الذي لا ناقة لي فيه ولا جمل؟! كم أود القول له لو كان يسمع: دعني أعشْ دعني أكذب وأحتلْ على الحياة!

لكنه لا يسمع إلا ما يعكرني مدعيًا أنه صادق ومثالي، يا ألله كم أصبحت المثالية بحيما لمن يحملها وسعادة لمن يقابل حاملها! فرحة من يقابل حاملها تضاهي فرحته بشيك مفتوح لحامله وجده في صحراء قاحلة وهو مقطوع! وبعد أن فشل بصرفه أو أن يستفيد منه حتى قام بتمزيقه! أنا هذا الشيك المفتوح يريدون صرفي أو بتعبير آخر أن يستفيدوا مني بشيء ملموس لا تهمهم صراحتي أو أخلاقي أو حتى صوني للعشرة! ما يهمهم الفوائد فقط أو المصالح وحال تمكنهم منها قاموا بتمزيق الشك! قمت بدعس سيجارة غضبي في منفضة السجائر، وكان منظر المنفضة مخيفا لقد كان يحوي كميات هائلة من الإشعال والرماد، تبا لهم كم كانوا كبريتا سريع الاشتعال لتكوين المنظر.

كم كانوا سببا في حرارة صدري! ومرارة قلبي! وشرود عقلي! وسواد صفحتي!

أشعر بأن قلمي أتعبه الانتظار كلما زادت صفحاتي بدأ يشح حبر قلمي في أولى الصفحات، كنت أكتب باليوم الواحد أكثر من خمس صفحات أما الآن فأصبح يخذلني الحبر كثيرًا وأحيانًا أضطر للعزوف أيامًا عن الكتابة. أعلم أنه كلما تأخرت حروفي عن الكتابة خرجت بشكل أجمل ومؤثر أكثر في النهاية، لكن والله تعبت لا طاقة لي باستئناف الانتظار روايتي التي نسجت من أحزان طفيفة لكن بعد أن باتت روحي غريقة صفحاتي أشعر بتضخم أحزاني! أشعر بثقل يدي وعجزها عن سرقة الفرح! أشعر بفضاء مخيلتي التي باتت تفرض وجودها وترفض مزيدًا من التمهيد. لبرهة جاءني شعور بأن أدون نهاية انتظاري، سوف تكون ضئيلة الصفحات لكنها ستكون أعمق وأروع وسرعان ما يأتي شعور متناقض يأتي جنود الرواية يحاصرون خيالي بقولهم من سيقرأ؟! يا ألله شتات ضياع وانتظار، يطرأ عليّ الآن تساؤل هل استحقت هذه الصفحات أن تخطف بقايا سعادتي؟ هل استحقت أن تؤجج انتظاري وقتل الحلم بداخلي؟ هل استحقت أن تتسلل لراحتي وحياتي وبعد أن علمت أنني بأمس الحاجة لهما أقدمت على

إخفائهما من ناظري يا أللهِ من يستحق كفاحي ومثابرتي من يستحق أن أتحمل كل هذا الألم دون أن ترمش جفوني آمل أن تقرأ صفحاتي فقط هذه كل آمالي ليس سعيًا لدخولي التاريخ. فقط أريد أن يعاد لي صوتي، وتعود ثقتي بنفسي كم هي مسؤولية بالغة الصعوبة أن تخفي نهايتك التي تتلخص بسطرين من الحبر، ثم يأتي خيالك ليجهز على محاولاتك للتخفي، ويقول لك سئمت من الانتظار أريد النهاية ويبدأ بيننا صراع العناد هو يرفض نسج المزيد من التخفي، وأنا أرفض الكتابة! من سيحظى بالانتصار وينهي الانتظار! إنه صراع البقاء للأقوى من ينتصر سوف يكون هو بطل الرواية والمهزوم هو الضحية، تأملت قليلًا آخر ما كتبت واكتشفت أيُّنا كان المنتصر حتما أنا الضحية! هههههه حياة جديرة بالسخرية فعلًا.

قمت بوضع هاتفي على الشاحن وحديث مع أمي بعدما خسرني صديقي الوحيد، لم يعد لي من متنفس سوى أمي، الفرحة الوحيدة التي يمكن انتشالها من السنوات الغابرة، بدأت معها الحديث بحكم أن روايتي شارفت على النهاية، سألتها عن إمكانية أن تعطيني مبلغًا من المال ولو كان دينا من صديقاتها أو إخوتي ووعدتها بإعادته فور حصولي على وظيفة، سألتني عن المبلغ وهي متيقنة أنه لا يتجاوز

خمسمائة ريال، لكونها تعرف أن لا مسؤوليات لدي ولست شخصا متطلبًا أو مهوَّسًا بالملابس أو ما شابه فأنا لا أنفق كثيرًا إلا على ما آكل وأشرب ولكونها لا تعرف عن روايتي، كانت متفاجئة عندما قلت: إن المبلغ خمسة آلاف ريال أو ربما أكثر.

سألتني عن حاجتي للمبلغ، أخبرتها أنني سأعلمها في الوقت المناسب.

قالت بسخرية وهي تكوي الملابس: لا تكون تبي تتزوج!

قلت لها: "معقولة جاي اتدين فلوس عشان أتزوج أنا وين والزواج وين يمة!

قالت: الله كريم أنت مستعجل عالفلوس؟!

قلت لها: لا يعني شهر أو أقل بشوي.

قالت وهي تحاول إطفاء نيران ابنها اليائس: خير إن شاء الله.

بعد قبلة على رأسها لم تكن حاملة في طياتها طباع الرشوة أو استدرار العاطفة أو ما شابه بقدر ما كانت محاولة تشبع من فرحتي الوحيدة التي أخشى ذات يوم أن يلقى القبض علي والتهمة سارق فرحة! أو أن أحرم من فرحتي الوحيدة!

قالت لي إنها تفكر بطلاء حائط غرفتها، وتريد مني إحضار معلم في الصباح، سألتها عن اللون وبعد أن ساعدتها في إخراج الأثاث من الغرفة وتنظيفها قامت بإعطائي مبلغ أربعمائة ريال لشراء الطلاء

وأجر المعلم، قبل أن أعود لغرفتي طلبت منها أن توقظني الساعة الثالثة فجرًا.

عندما عدت لغرفتي وجدت اتصالًا من صديقي الزائف يوسف، تجاهلته وأنزلت الستائر للنوم، وأنا على متن الوسادة قبيل مغادرة الوعي جاء اتصال آخر أيضًا من يوسف، قمت بالرد عليه لتذكيره أنه تمت إزالته من أرشيف سنواتي الغابرة معه وأغلقت الخط، ثم عاد باتصال سريع وأنا أقول له لا تضطرني لحظر اسمك على هاتفي الافتراضي أيضًا قاطعني بقوله لي: حلفتك بأعز ما تملك ألا تقوم بقطع الخط معي.

منحته سمعي، فقال: أريد مقابلتك لأمر ضروري جدًّا.

قلت له بأنني لا أحلف إلا بالله هذا أولًا، أما ثانيًا أنا الآن بنام عندي شغل في الصباح بس أتفرغ ممكن نتقابل

قال براحتك بس تراني كل يوم بعد العصر راح أكون بنفس المقهى، وعلى نفس المقعد منتظرك وحتى لو قلت لي لا تنتظر راح أنتظر، وأنهى بقوله سكر اللحني! لن أسترق الغضب منك! أغلقت وأنا مذهول من كلامه وانتظاره لقد اختطف رضاي بحديثه عن الانتظار ولبرهة كنت سوف أذهب لمقابلته في الحال لكن تريثت قليلا ثم ماذا؟ عدت لمواصلة نومي أو بالكثير من الدقة هروبي.

استيقظت فجرًا وأنا أرفع الستائر وأفتح النوافذ، جاءت أمي لتوقظني وبعد أن شاهدتني مستيقظًا خرجت وذهبت أنا للوضوء وأداء صلاة الفجر، وعندما عدت كانت أمي قد وضعت الفطور وعادت للنوم، يا ألله ما أعظم الأم، وما أعظم فرحتي الوحيدة التي تكاد تبكيني فرحًا وخوفًا بعد تناول الطعام.

قمت بتشغيل حلقة من مسلسل كنت قد بدأت مشاهدته من قبل أن أبدأ الكتابة وشاهدت أكثر من عشرين حلقة منه لكن توقفت عن متابعته من أكثر من شهرين، مسلسل رائع جدًّا، ويحمل في ثناياه الضحك والبكاء معا برأيي إنه أفضل عمل كوميديا سوداء بتاريخ الدراما العربية، المسلسل من تأليف النقاش الدكتور ممدوح حمادة فكرة المسلسل: عائلة بسيطة تقطن اليوم دمشق وتواجه كافة الأطياف فيها على مدار الحلقات والعائلة أيضًا تحوي الأطياف كافة فيها المعارض، وفيها الموالي وفيها الرماد، مسلسل الحقائب ضبوا الشناوي أول عرض له في عام 2014 من بطولة الرائع بسام كوسا الأب والابن الكبير أيمن رضا والبنت المطلقة أمل عرفة، بعد حلقتين من عرض العمل يقترح أحد الأبناء على العائلة مشروع الهجرة، تشترط عليهم الأم أنها لن تهاجر إلا إذا اتفق الأبناء أن يهاجروا جميعًا وتدور بقية أحداث المسلسل في سياق

الضحك والدموع للمشاهد، ما أروع المؤلف مزج الضحك والدموع في وقت واحد بحرفية معتادة وحيادية.

بعدها ذهبت لشراء الطلاء لأنجز الغرفة قبل أن تستيقظ أمي وتكون مفاجأة لها، عندما عدت قمت بإقفال الغرفة علي وبدأت بصنفرة الحائط ووضع اللاصق على الحواف، كانت أول مرة ونسبة الإتقان كانت 85% وكانت متعبة جدًّا جعلتني أشعر بنعمة الماء وجعلتني أستشعر لذة الماء، كانت تستحق التجربة.

بعدها قمت بإعادة المبلغ المتبقي في الدولاب الخاص بأمي وها أنا الآن مجددًا وحيدا في مقهى لا يعلم به صديقي تجنبًا للقاء مع الجدار بعد إقفال غرفة أمي وقمت بأخذ المفتاح معي لكي لا تراها في غيابي. أكتب...

بعد رشفة من الشاي وخطفة أنظار سريعة على مجمل ما كتبت، كان شعور كأب يستقبل خطّابا لابنته وهو فخور بتربيتها ومصدوم من انجراف السنوات سريعًا، بعدما كان يحملها على يديه ويلاعبها اليوم أصبح يختار لها رجلا يستحقها ويقدرها وقلق على أن يأتي سريعًا.

يطرأ على خيالي الآن معلمي الفاضل الأستاذ: عبد الرحمن الربيعان جئته قبل ثلاثة عشر عاما جئته طفلًا لا يفقه الحرف وكان سبب

إبحاري في محيط اللغة! كم أتمنى الآن أن أضع نقطة آخر سطر سريعًا وتصدر الرواية سريعًا وأذهب سريعًا لمدرستي، وأقوم بفتح باب فصلي وآخذ صورة على مقعد انتظاري الأول في حياتي قد يكون المقعد تغير والطلاب تغيروا لكن المكان حتما لم يتغير لكني أخشى أن يكون معلمي تقاعد لأنه قبل ثلاثة عشر عاما كان الشيب والوقار قد هيمنا عليه، يا ألله كم أتوق أن أهديه انتظاري أهديه كتابا كان له فضل فيه لكن أخشى أيضًا ألا يتذكرني أخشى أن يكون نسيني أخشى أن يكون طال الانتظار، آخر صدفة جمعتنا كانت قبل خمس سنوات تقريبًا كنت ماشيًا في صباح ممطر لأداء آخر امتحان في مرحلة المتوسطة وأنا أمشي بجوار مدرستي الابتدائية وأتأمل مرحلة انتظاري الأولى حجبت عني التأمل سيارة جيب سوداء لها هيبة تشبه هيبة معلمي النادر، نزل منها رجل لا يزال الشيب والوقار مسيطرينِ على ملامحه، نزل ليصافح طالبا بعمر أربعة عشر عاما، راجلا في صباح ممطر لأداء الامتحان بعد السلام وبعد قبلة على رأسه أقسم أن يقوم بتوصيلي، هذا كان آخر لقاء قدر معه، أشعر بأن كلمة نادر لا تفي لوصفه لكنها قد تميزه عن آلاف المعلمين الذين تنتهي مهنتهم فور قرع جرس الخروج! لقد كان معلما في كل مكان تنهل من علمه ونبالته في أي مكان شارعا

أو مدرسة ! هو رجل تلبَّس بحالة المعلم ليعلم لم يتلبّس بها سعيًا للمال أو لفرض سيادته باختصار ... هو المقصود بقول الشاعر:

قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا كادَ المُعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

اليوم بعد أسبوع من توقفي عن الكتابة لأخذ قسط من الراحة بعد إرهاق الصفحات لي والذكريات ولإكمال مسلسلي الذي انتظرني ما يقارب الشهرين "الحقائب" رغم أني شاهدته في عرضه الأول لكنه استحق أن يأسرني وأن يجذبني للنهاية كنت أدرك نهايته بله وحتى أتذكر بعضا من تفاصيلها لكني كنت مشيدًا جسورا وهمية من الآمال كنت متمنيا نهاية انتظار أخرى نهاية أقل حدة وأقل دموعًا.

دائمًا لا يخلو الواقع من أمل قد يكون خجولا في الوجود أو مذعورا من هول الواقع قد يكون قاصدا التخفي لينجدك في الوقت المناسب قد يكون لنا طوق نجاة أو مجرد وهم وأننا نهِم أنفسنا بوجوده المعدوم وبعد ثلاثة أيام من انتظاري لنهاية أخرى نسف جسر انتظار آخر من بقايا جسوري أو بقايا حياتي كانت النهاية نفسها مصير عائلة كانت تسعى على مدى تسعة وعشرين حلقة وتصارع للهروب، نسف جسر انتظارهم الأخير جسر انتظار الحياة أو بقايا الحياة كان مصيرهم الغرق يا ألله كم أصبح الانتظار أقوى

من جميع جيوش العالم لو اجتمعت جيوش العالم على الإطاحة بالانتظار لما استطاعت النهاية كانت نفسها، أما الدموع فلقد كانت مضاعفة هذه المرة لأني لم أبكِ على نهاية سوداء مصيرها الغرق فحسب بل بكيت على أوهامي، وضحك على ذاتي عندما كنت متأملا نهاية أخرى وبعد رحلة هروب من الواقع والانتظار والغرق دامت لأكثر من ثلاث عشرة ساعة عدت لاستئناف الكتابة لكن هذه المرة لم يكن العود أحمد بالنسبة لي منهك جدًّا وإرهاق وصوت زاد التعب من حدته، وخمول فظيع حتى على الصفحات لكن ما يجعلني صبورًا على خمولي وإرهاقي وصولي لهذه الصفحة، اقتربت نهايتي إذ استعملت حيلة الضحك على ذاتي مجددًا يمكن القول إنني هزمت انتظاري! هزمته على الورق فقط تمكنت من حصار انفجار أحباره حتى آخر صفحاتي! لم أمكنه من الوجود في صفحات تروي ما قبل النهاية أبقيته محاصرًا ومنتظرا حتى أواخر صفحاتي هذا كل ما وسعني فعله وإلحاق الضرر تجاه ألد أعدائي الانتظار أما هو فقد ألحق بي ضررا وحيدا لكنه كان بحجم عشرين سنة انتظارا وبحجم خمسين سنة مقبلة لا أحمل سوى الانتظار.

عن الحرمان حرمني حمد العافية حرمني متعة اللقاء ووجود الأحباء، حرمني من الهناءة بأنفاس معدودة من السعادة، حرمني من عيش قصص الحب من أعماقي وجوارحي، لم يفسح عنها إلا بعد ضغوط مني لتغيير مناخ الدراما الحزينة التي أعيشها!

باختصار هو حرمني من عيش اللحظة جعل عيشتي مجرد ذكريات مبكية مهما بلغ جمالها جعلني سارقًا للفرحة جعلني منتظرًا الموت لأنال الجنة فهي الرحلة الأخيرة التي لا يعقبها انتظار ولا غياب ولا شقاء ولا مرض، ولا حتى اشتياق كان جريئًا ووقحًا جدًّا كان يشيع جثمان أحلامي الصغيرة ويصورها لي بالأبيض والأسود دون تعزية!

جاءني اتصال من أمي، وقالت إن العائلة مجتمعة في السطح.

عندما صعدت للسطح كانت عائلتي كلها موجودة كانت جلسة شواء عائلية.

بادر بالحديث معي أخي الكبير، وقال: وينك مختفي لي حوالي الثلاث أشهر ما شفتك أنا ما أجي للبيت إلا مرة كل شهر، وتكون أنت نايم فيها!".

كان بداخلي كثير من الكلام والانتظار والإرهاق ولكني حافظت على هدوئي بقولي: من سوء حظي يا أخي.

تمكنت من تأجيل مفاجآتي لهم تمكنت من تأجيل ردة فعلهم المجهولة لو كانت المفاجأة في أي مجال آخر لكان التخمين ممكنا، عائلتي تحوي محب الكورة، ومحب الطرب، ومحب المسلسلات والأفلام السينمائية. أما عن حب الروائيين فلا علم لدي، لم تكن القراءة تستهويهم حتى أنا يمكن شملي معهم فأرشيفي القرائي طفيف جدًّا لذلك كانت ردة فعلهم مجهولة وغامضة! والذي زاد الطين بلة أنني لم أشعرهم بحياتي، ولم أخبرهم بفضاء مخيلتي حتى عندما كان يأتي حديث عن كاتب أو عن كتاب لاقى نجاحا أبادر بقولي: "ليه في أحد يقرأ؟"

كانوا يردون علي بصوت غليظ محث للقراءة: "الناس كلها مو تشبهك الناس تقرأ وفيه مثقفين وأدباء!"

اليوم في أواخر صفحاتي أمل أن يصيب كلامهم! ليقرأني أحد ليشعر بوجودي أحد بدأت تتلاشى جسور انتظاري بقي انتظار ردة فعل غامضة!

وجسور انتظاري الأخرى قد تكون طفيفة لكن انتظارها مميت! ويسرق الشعور من داخلي وعندما يصل للوعي والإدراك يبقيهما بداخلي ولا أعلم ما الدافع هل يسعى ليزيدني الألم، ويخطف مني بقايا الأمل، أما عن الاحتمال الأضعف فهو أن يكون هبط عليه

الخوف من الله على غفلة! لكنه احتمال معدوم ولا أساس له من الصحة وهدفي من سرده هو محاولة أخرى للضحك على الذات؛ لأنه لو هبطت عليه ذرة من الخوف لأعاد لي شعوري! يا ألله، يا أمي ابنك بات سارقا للفرحة فحسب وأصبح الآن مسيلمة الكذاب وليتني أكذب على أحد أنا فقط أبالغ في الكذب على ذاتي! لأعيش للتخفيف من الخيبات الدسمة التي أصبحت مأكلي ومشربي وبشكل يومي وبعد عسر هضمي الشديد أصبح الكذب على ذاتي هو مهربي وعلاجي!

يوم الخميس بعد أدائي لصلاة العصر مباشرة تذكرت اتصال صديقي الذي مضى عليه أكثر من أسبوع وبعد صراعي مع عقلي الذي كان يشي لي بقوله لقد أصبح بطاقة محروقة غير قابلة للاستهلاك! لا تذهب! بعد إخماد الصراع ذهبت لنفس المقهى الذي جمعنا أنا وصديقي لما يقارب الست سنوات، كان المقهى فارغا ومقعدنا أيضًا جلست على مقعد انتظاري وكنت سعيدًا أو بشكل آخر محتفلًا لتذكري تاريخ جلوسي على هذا المقعد!

بعد أن انتهيت من تأمل ذكرياتي طلبت قهوة تركية، وبعد أول رشفة أعادت لي الشعور ونبهتني بأن مقعد صداقتنا لا يحمل أحدا سواي وأنا تعجبت من تغيب صديقي يوسف! ولأول مرة نفسي

تحثني على حسن الظن وبشكل عنيف ومخيف أحسنت الظن وقلت لعله نائم أو مريض أو لديه ظروف خلقت لغيابه الكثير من المبررات! وبقيت منتظراً لقبيل صلاة المغرب، ثم غادرت أنا وحسن ظني سويا على أمل اللقاء غداً.

عدت ثاني يوم بنفس التوقيت المنتظر من أكثر من أسبوع، لكن أيضًا كانت المقاعد فارغة ولبرهة شعرت وكأنها سعيدة لأنها لا تحمل أوزانا حملتها على مدى ست سنوات شعرت باستفزاز من مقاعدنا وجلست على مقعدي، ووضعت أقدامي على مقعد صديقي كانت محاولة لتبادل الاستفزاز مع المقاعد ثم راودني تساؤل هل أتصل عليه ليعلمني عن سبب غيابه؟! بعد إبادة حسن ظني يمكنني القول بأني كنت أخشى أن أصدم، إما أن يكون قد حدث له مكروه أو أن يكون قد ندم على انتظاره أياما لصديق قضى معه سنوات من العمر من أواخر مرحلة الطفولة وحتى بدايات الغوص في مرحلة الشباب! هز التساؤل ذاكرتي الضعيفة، وتذكرت أنه اتصل ذات مرة بأخيه الكبير من هاتفي، وكان آخر ثلاثة أرقام من رقمه 237 عدت لسجل مكالماتي الضئيل بحثًا عن الأرقام بعد تدقيق دام لقرابة عشرين دقيقة عثرت على الرقم، واتصلت به لكن لم أجد أي رد وفي محاولة ثانية للاتصال وللتخفيف من القلق

الذي زاد والندم الشديد الذي حاصرني بعد إبادتي حسن الظن لكنها أيضًا باءت بالفشل وتفتقر للردود وتؤجج الندم ندمي على المجزرة المدمية التي نفذتها تجاه حسن ظني!

عدت للمنزل ورأسي مثقل بالندم والقلق معا وعاد التساؤل هل أتصل عليه؟! لكن دائما ما كان يغلبني الخوف ويكون جوابي الصريح والوحيد لتساؤلاتي! صعدت للسطح بغرض سقي الريحان وكان الصعود هذه المرة بمثابة النزول لسببين الأول لأن يديَّ لم تكن حاملة للشاي! الثاني والأهم هو ذبول الريحان وانعدام رائحته! وبعد محاولات فاشلة لاستنشاق بقايا روائحه استنجدت بأمي وهي في المطبخ لتحضير العشاء.

أنا: أمي الريحان ذبلان وما فيه رائحة؟!

أمي: وين كان على الدرج؟

أنا: لا بالسطح نسيت أمس قبل أن أنام أن أحطه على الدرج!

أمي: الله يهديك ناسيه على السطح، أمس بالليل كان الهواء قويا وفيه غبار!

أنا: كنت نايم ما دري أن فيه هواء قوي!

أمي: نزله على التكييف واسقيه بخاخ ماء.

أنا: يفتح إن شاء الله؟

أمي: أي إن شاء الله.

فبادرت بتنزيل الريحان سريعًا ومنفذًا لنصيحة أمي وأنا أسقي الريحان جاءني اتصال من رقم آخر ثلاثة أرقام منه كانت 237 إنه الأخ الأكبر لصديقي!

فرحت وذعرت، وفي النهاية قمت بالرد عليه ويداي ترتجف بعد السلام وبعدما عرفته بنفسي اعتذر عن عدم رده وقال: كنت نائمًا، سألته بعدها: أخبار يوسف؟ أتصل عليه وجواله مغلق!

قال: والله مدري يمكن ما فيه شحن بس هو الحمد لله طيب وبخير، وقبل نص ساعة أنا اتغدى لمحته طالع.

قمت بشكره واعتذرت له عن إزعاجي، يا ألله لقد تعقدت الأمور أكثر وأصبحت أشد ظلامًا وعادت صراعاتي مع ذاتي هل أندم على إبادة حسن ظني فيه؟! أم أنه كان يستحق أكثر من ذلك؟! عدت سريعًا للمقهى لقتل الشك، كان المقهى شبه ممتلئ وحتى مقاعدنا ليست بشاغرة! اختطفت نظرات سريعة لملامح الزبائن لأتأكد إن كانت ملامح يوسف من ضمنهم لكنه لم تكن! عدت للمنزل وأنا في حيرة من أمري هل أنسف جسر انتظاري ليوسف، وهو من شيد هذا الجسر! أم هل أخلق له مزيدًا من الأعذار؟! تربعت أرضًا بجوار ريحاني كانت جلستي معه بمثابة الوداع لأنها قد

تكون الأخيرة! كان الريحان حزينا وبلا رائحة وأوراقه تبدل لونها من الأخضر إلى لون فاتح كئيب حزنه طغى على ملامحي.

جاءت أمي لتخبرني بأنها قد وضعت العشاء، وعندما استشعرت حزني على الريحان قالت بنبرة سخرية: "أعظم الله أجركم" والبقاء لله.

لا أعلم هل أغضب على التقليل من شأن الريحان وهو على سرير المرض، وقد يكون في أواخر أيامه أم أغضب من روحي التي عشقت النبات! دعوت الله أن يكون متفتحًا في الصباح، ثم غادرته بنظرات وداعية لتناول طعام العشاء.

بعد العشاء شعرت بتخمة وبضيق أنفاس، ذهبت للمشي القريب من المنزل مشيت وقتها أكثر من ساعتين استمعت فيها لأغاني الست "سيرة الحب" هجرتك سهران لوحدي، وأنا في طريقي للعودة للمنزل كنت أشعر براحة مشابهة لراحة الدموع لكن دون دموع!

عندما وصلت للمنزل وقعت عيناي على الريحان شعرت أنه يكاد ينطق ويقول انتهت الرواية! لكن كيف تنتهي؟! بقيت جسور انتظار أخرى لم ينسفها الحبر بعد! هل تراه كان يقصد أن أحداثه في صفحاتي انتهت؟! هنيئًا للريحان لقد سرق النوم من جفوني بعد أن انتشلته ليكون عطرًا يؤجل من استفراغي وكما قالوا: " السارق من السارق كالوارث عن أبيه!"

نمت في تمام الساعة الحادية عشرة حسب توقيت ساعة حائط غرفتي، واستيقظت في الثانية والنصف فجرًا ما أتعس الروائيين! لو تمكن الحبر من سرقة بقايا نومنا الضئيل لفعل!

الآن أيقنت بأن ابن ادم لا يملأ عينه إلا التراب! قبل بدأ الرواية وبسبب عزلتي وهدوئي كنت أشعر بأني بحاجة لشيء بحجم البحر ليسمعني ويقرأني أو حتى يشعر بي! أما الآن فبعد أن امتلأت صفحاتي بسواد بوحي أشعر براحة متعبة! بسعادة محزنة! بيأس وأمل تفاؤل وتشاؤم! حقًّا لقد أضعت نفسي وأنا في آخر صفحاتي.

ذهبت للمطبخ لتحضير الشاي لأنهي أحداثه في صفحاتي ثم صعدت بها للسطح وبقيت وقتها حتى أذان الفجر نزلت للوضوء وأداء صلاة الفجر في الجامع، وفي أثناء خروجي صادفت شخصا كان دائمًا ما يجتمع معنا أنا وصديقي يوسف بعد السلام والقليل من الكلام سألته عن يوسف وأننا منذ فترة طويلة لم نتقابل، قال: يوسف ممتاز وبخير ومتوظف بإحدى الشركات المحلية الكبيرة وراتبه ما شاء الله وأمس اجتمعت معه كان يقول إنه ناوي أن يخطب وبي ينقل من الرياض قلت: ما شاء الله، الله يوفقه ويبارك له.

انصرفت عنه وملايين التساؤلات وعلامات الاستفهام تسكنني! صديقي كم تمنيت من صفحاتي أن تدون نهاية صداقتنا كسائر الروايات والمؤلفات نهاية سعيدة ومبهجة للقارئ لكن يبدو أن الشفافية قد احتلت روايتي لا تكتب لتسعد أحدا ولا تبالي كونها رواية سوداء، ولم تصارع لتكون رواية تحمل في نهايتها نشر السعادة هي اكتفت فقط بتجسيد واقعي! دون مبالغة ودون تزييف!

كم تمنيت أن تقرأ في صفحاتي على أنك ذلك الصديق النبيل الشهم الذي بات اليوم يعدم من الوجود، كم تمنيت أن نحسد أنا وأنت على صداقتنا! لكنك كنت مصرًّا على أن تمنحني لقب الكاتب الواقعي وبكثير من الدقة السوداوي! نسف جسر انتظار آخر وبقي القليل باتت تعدم دون حدود انتظاري وسواري وطوق نجاتي أشعر بإحساس فظيع ليس على سنوات الصداقة ولا ندم على مصادقتك! لكني نادم عندما ندمت على بقايا حسن ظني تجاهك لم تستحق الندم، ولن تستحق الأسف ولا حتى مزيدًا من الحبر رثائي الوحيد للمقعد الذي تحمل مكرك وثقل نواياك! وداعًا صديقي.

فور عودتي للمنزل كنت متلهفًا لقفلة الرواية فلقد أصبت بتخمة من كم الخيبات كنت مكتفيًا برفع راية الاستسلام للحبر ورائحة الورق. شعرت بضعفي وضعف الإنسان بشكل عام مهما بلغ من سلطة

وقوة جسدية قد يضطر ذات يوم للاستسلام والخضوع للحبر والورق! وأكثر ما يمكنه فعله مع جيش تحالف الورق والحبر هو تقليص المسافات وتقريب النهايات بمعنى الهروب يا ألله ما أبشع الهروب! كم من هارب على هذه الأرض؟! نهرب ونحن مدركون تمامًا بأن هروبنا ليس حلا جذريا ولا مفرا هو فقط تأجيل للأقدار!

نؤجل الأخبار السيئة نؤجل الحياة نؤجل الموت كم يعشق البشر التأجيل! وليت التأجيل يجعلنا ننعم بالحياة أو حتى بقايا الحياة هو فقط يجعلنا ننتظر بقايا الحياة! أقرب شبيه للمنتظرين هم المتسولون، المتسول لا يشتهي شيئا يمنع نفسه من الشهوة على الموز أو اللحم يمنع شهوته من التحديد هو فقط يأكل من البقايا التي يحصل عليها المنتظرون كذلك لكن باختلاف شكلي طفيف لكن المضمون واحد وجميع الطرق تؤدي للبقايا! وتبقى البقايا بقايا مهما اختلفت التسميات ومهما بلغ الكذب على الذات! هذا وإن وجد خيال يستطيع تصويرها أو صياغتها بغير بقايا.

ذهبت للريحان للتأكد إن كان كتب نهايته أم أنه باق ومنتظر. مات الريحان وماتت رائحته وانتهت أحداثه في صفحاتي ولم يتبقَّ منه سوى الرثاء أشعر بهبوط شديد وخمول أشعر بنزول ضغطي

طلبت من أمي أن تحضر لي كوب لبن وتضع عليه الكثير من الملح قد يكون شديد المرارة لكنه قد يعيد ضغطي لطبيعته!

ثم بعدها أذكر أني غفوت غفوة لم تكن طويلة لكني هنأت نفسي بها واستيقظت شبه نشيط بعد الاستحمام بماء بارد شعرت أن الأمور عادت لطبيعتها ثم قبل بدأ مراسم دفن الريحان قررت الحداد على صديقي وريحاني لأن قلبي شهد جنائز كثيرة في وقت وجيز كنت أخشى مزيدًا من الجنائز المفاجئة! ارتديت نظارتي الشمسية وخطفت أنظاري إلى ساعة حائط غرفتي لأرى هل يسعفني الوقت للحداد! كانت الساعة في تمام الحادية عشرة ليلًا ذهبت لنفس المقهى الذي كان شاهدًا على وفاة أبطال روايتي! جلست في الخارج وعلى الهواء الطلق لضيق أنفاسي بعد طلبي للشاي بدأت في مواساة نفسي بقولي إنها خاتمة أحزان روايتي، بعد سبع رشفات من الشاي جاء أحد العاملين في المقهى وطلب الحساب سألته وأنا متعجب ليه؟

قال: باقي ربع ساعة ونقفل نبي نسوي جرد للصندوق.

قلت: بدري للحين ما وصلت حتى 12!

قال: بدري من عمرك الساعة 1.45

قمت بإعطائه الحساب بعد التأكد من ساعة هاتفي

وأنا في طريقي للمنزل كان يراودني كثير من التساؤلات، فور وصولي لدروج المنزل حملت معي السلم وصعدت مسرعًا لضبط الساعة بعدها أعدت السلم لمكانه وصعدت للسطح ومعي الشاي كانت جلسة وداع كانت بمثابة احتفال لإنهاء الرواية واقتراب تدوين نقطة انتهى.

كان الطقس صافيا وقتها ويحمل نفخات من البراد! وكنت مستلقيا على ظهري أستمع لأم كلثوم وأتأمل السماء البديعة التي من صنع البديع لقد غفوت من شدة سعادتي بهذا المنظر البديع وعلى الرغم من عدم افتقاري للنوم نمت وما استيقظت إلا على صوت أمي وصوت أذان الفجر كانت أمي تقول: ليه نايم هنا تراك بتمرض!

قلت: والله ما حسيت على حالي وكانت السعادة تطغى على محياي.

قالت: ما شاء الله طلع عندك أسنان، هذه أول مرة أشوفك مبتسم وأنت توك قايم من النوم.

قلت: المهم يا أمي ترى ساعة غرفتي كانت مؤخرة حوالي الساعتين.

قالت: هههههههههه ياحبيبي ساعة غرفتك ما تحركت عقاربها من حوالي العشرين سنة!

قلت: لا بس تراني ظبطتها!

قالت: اللحين المفروض كم تكون الساعة؟
قلت: يعني بما أنه أذن الفجر يفترض أن الساعة أربعة وثلث، ليه؟
قالت: روح شوف الساعة اللحين وتعرف!
يا ألله عقارب الساعة واقفة على نفس الوقت اللي ظبطتها فيه!!! معقوووول!! عشرون سنة لها واقفة وأنا ماشي على توقيتها بصفحاتي!! يا ألله أجل أنا وش منتظر!! أقسم بالله أن انتظاري ولد ومات وفي ليلي عيد ولد من جديد وكتب ودون بنقطة انتهى وإلى الآن لا أعلم ماذا أنا منتظر.
رسالة محفزة: أعتقد من واجبي بعدما أغرقتكم ببؤسي أن أسترق لكم بهجة في كتابي هو كنز اكتشفته مؤخرًا بعد رحلة قصيرة كانت هائمة بالطلبات! ومحاولات فاشلة للسعادة أو حتى الراحة لكن الآن بعد عشرين سنة من البحث عن السعادة تعثرت بكنز السعادة ليست السعادة فحسب! اكتشفت بأن هذه الكرة الأرضية المليئة بالبشر والكواكب وبقية المخلوقات لا يوجد بها أحد سعيد ولا يوجد بها أحد يعاني من الكمال الآن أدركت لِمَ لا يحزن الأطفال لأنهم يظنون بأن جميع البشر بخير وأن الحياة للرفاهية فقط، ونحن أيضًا سيرحل عنا الحزن لو أدرك كل منا مهما واجه من بشاعة الأقدار ويبقى على هذه الأرض من يواجه أقدارًا أبشع

منه! لا تضع نفسك على أنك محور الكون فالكون مليء بالناس المتعبة والمريضة ثق بأنك لست وحدك من تقاتل.

السعادة: هي الطريق....

وضع هذه الآية دائمًا أمام قلبك (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها).